

السنة الثالثة العدد ٣٣ أبريل ٢٠٢٠

كلمة حق

وكم في كورونا من فوائد وعظات !

محمد إلهامي

جائحة كورونا ...
تداعيات مزلزلة ومستمرة

د.هشام كمال

الصين ورئيس منظمة الصحة العالمية
هما المسؤولان عن انتشار الوباء

ترجمة : أسامة خالد

حتى لا يعود جهيمان

أحمد الحمدان

ملف: أوراق أفغانية..التاريخ السري
للحرب..عالقون بلا استراتيجية (ج٢)

حامد عبدالعظيم

وغيرها من المقالات ..

محتويات العدد ٣٣

••• أبريل ٢٠٢٠ •••



klmtuhaq
دورية ثقافية معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
حامد عبدالعظيم


ترحب مجلة كَلِمَةُ حَقّ
باستقبال مقالات القراء ،
إذ تعمـل هيئـة التحـريـر علـى فـرزها
ونشر المتميز منها في كل عدد جديد ،
يُرجى إرسال المقالات على البريد التالي
Klmtuhaq@gmail.com
كَلِمَةُ حَقّ
klmtuhaq

•• الافتتاحية ••

وكم في "كورونا" من فوائد و عظات!

محمد إلهامي

أليس من العسير أن يجد الكاتب شيئا يكتبه في أمرٍ يتكلم فيه العالم كله؟

بلى هو كذلك.. إلا أن الذي يُهَوِّن الأمر قليلاً هو تنوع الهموم، فكلٌّ يُغني على ليلاه، وكلٌّ يلتمس من الأحداث ما يجد فيه سلواه أو يجد فيه هداه.. وهذه سطور مسلم في زمن القهر والهزيمة، قد أظلته جائحة كورونا، ففيها من الهمَّ والشجوى ومن الدرس والعبرة ما لا يراه من لم يكن كذلك!



وهي وإن طالت مختصرة مجملة، فإن ظننتَ أن فيها سطحية مبتذلة، فكرِّر النظر وأعد التأمل، فقد أودعتها خلاصة نظر طويل، فإن تبينت المعنى ثم أنكرته فلا تثريب عليك، التثريب ألا تتبيّنه ثم تسارع مستنكراً.

(١)

كيف يكون الهول الأعظم إذا كان هذا هو ارتياع العالم من فيروس لا يُرى، ولا يقتل في الحال، بل وقد تعافى منه كثيرٌ ممن أصيبوا به؟

كيف سيكون حال الناس حين تتزلزل الأرض وتنشق السماء وتنتثر الجبال وتُحشَر الوحوش وتهيج البحار وينقلب حال الأرض كله هولاً عظيماً؟!

ذلك الذي يخوف الله به عباده..

(حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

لقد كان الله حاضراً وخالقاً ومدبراً في كل لحظة، هو الذي خلق البذرة وخلق الماء وخلق الأرض ووضع في كل ذلك قوانين الزرع والنماء، فلما جاء الإنسان فبذر وسقى فخرج له زرعه ناضراً زاهياً، ظنَّ أنه الذي فعل هذا كله، وظنَّ أنه المتحكم فيه القادر عليه، فإذا به تأتيه العاصفة فتقلب له أرضه وزرعه، وتقلب معها تصوراته وأفكاره، وتفضح ضعفه وعجزه!

●● وما أشبه هذا بحال البشرية اليوم، تلك التي صار العلم فيها يُعبَد من دون الله، حتى ليُقال عن شيء فرضه الله صراحة "لا نؤمن به حتى يثبته العلم"، أو عن شيء حرَّمه الله صراحة "لا نكفّ عنه حتى يثبت العلم ضرره"، حتى هذا الخسوف والكسوف يثير صخب العلمويين حتى يسخروا ممن يهرع إلى الصلاة، لسان حالهم: تلك آية من آيات العلم لا من آيات الله!

وغداً بعد زوال هذه الجائحة، وسواءُ أزالتْ بأمر الله من تلقاء نفسها، أو زالت بأمر الله بأن هدى بعض عباده لدوائها، سيرجع إلينا أولئك العلمويون ليقولوا: انتصر العلم!.. وهكذا حتى تأتيهم عاصفة أخرى تفضح ضعفهم وعجزهم، ويحق فيهم قوله تعالى: (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)، وقوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)، وقوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم).



(٢)

آمن الناس بكورونا، ولم يؤمنوا برب كورونا..

مع أنهم لم يروه جهرة، ولا سمعوا له صوتاً ولا أنزل لهم كتاباً ولا أرسل إليهم رسولاً، وما هو إلا أن أخبرهم الأطباء به، ثم أبصروا آثاره في بعضٍ منهم.. هذا الذي يثير الحرارة ويصيب بالصداع والغثيان وينشب في الرئة صار حقيقة لا شك فيه! وأما الذي خلق الرأس والحرارة والرئة والبدن وكورونا نفسه فلا يزالون يتجادلون فيه!!

لقد راوغ الملحدون كل مراوغة في التماس طريقة يثبتون بها الخلق دون الاضطرار إلى الإيمان بالخالق، فتحدثوا عن الصدفة، وعن التطور، وعن غيرها من الأسباب، بل جادلوا في قانون السببية نفسه، حتى صار يصحّ في عقول كثيرين منهم أن هذا الكون العظيم الرهيب، بل هذه الخلية الواحدة المعقدة ليس لها خالق، أو أن خالقها قد تركها (أي: خلقها عبثاً) كصانع الساعة الذي يضبط حركتها ثم يتركها.. وفاضت في هذا كتب وهلكت فيه أعمار وشغلت فيه ساعات من التلفاز والمسرح وأنواع الفنون.

فمن ذا يصدق الآن رجلاً يزعم أن كورونا ليس موجوداً، وأن الذين أصيبوا به إنما هم أناس ارتفعت حرارتهم وانهار تنفسهم بمحض الصدفة، لظروف خاصة شملت المصابين به عبر العالم، وأن انتشاره لا ينتقل بالعدوى بل انبثق من تلقاء نفسه في جسد كل مصاب، وأنها مجرد مؤامرة من الأطباء الكذابين الذين يستغلون خوف الناس من المجهول بغرض طلب الزعامة لأنفسهم؟!

هذا الذي قيل في الله وقيل عن رسله، مع أن الدلائل التي ساقها الله في كتابه المسطور وفي كونه المنظور، والتي جاء بها رسله، لم يأت بمثلها الأطباء عن كورونا، وإنما هم لا يزالون يكتشفون ويتبينون ويبحثون ويفحصون.. لكن الذين في قلوبهم مرض، كفروا بالله وكذبوا رسله، وآمنوا بكورونا وصدقوا الأطباء!

(٣)

أخبرنا الأطباء أن اسمه: كورونا (المستجد)..

هل يكون من الدروشة أن يذكرنا هذا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "وما فشت الفاحشة في قوم فأذاعوا بها إلا ابتلاهم الله بالأوجاع والأسقام التي لم تكن في أسلافهم"؟!



نعم، سيكون هذا من الدروشة والخرافة عند من يؤمن بالعلم، ذلك الذي لا يرى سبباً منطقياً واضحاً للربط بين انتشار الزنا والمجاهرة به وبين ظهور الأوبئة الجديدة.. ولكن مهلاً: ما هو العلم؟!

أليس هذا العلم نفسه هو الذي لم يكن يعرف أن أكل الخفافيش والقطط والكلاب قد يسبب هذا النوع من الأمراض؟ بلى، هو على الأقل العلم الذي لم يقطع بعد بالسبب الذي انتقل به الفيروس من الحيوانات إلى البشر.. فلا زال العلم يكتشف، وقد تكاثرت علينا أقوال "العلماء" حتى اضطربت وتناقضت!

لا بأس إذن.. إذا عرفنا أن العلم لم يبلغ من الإحاطة بالأمور ما يعصمنا به من الأضرار، فلماذا يُصِرُّ بعضهم على عدّه مصدراً وحيداً للمعرفة، ومعياراً وحيداً للحكم على الأمور؟!

إن في تاريخنا رجلاً أميًّا وجَّه أتباعه قبل نحو ألف وخمسمائة عام إلى تصرف الحجر الصحي حين ينزل الوباء في بلد ما، وفرض عليهم التطهر بالماء خمس مرات في اليوم في بيئة صحراوية الماء فيها عزيز نادر، ووجَّههم إلى غسل أيديهم عند الاستيقاظ من النوم "فلا تدري أين باتت يدك"، ووجههم

إلى استعمال اليد اليمنى في المأكل والمشرب والطهور واستعمال اليسرى لمعالجة الأذى، ونهاهم عن الشرب من في السقاء، وعن التنفس في الإناء، وعن ترك الآنية مفتوحة مكشوفة، ونهاهم عن أكل الميتة والدم وأكل لحم الخنزير والكلاب وذوات المخالب والأنياب، وعن البول في موارد الماء، وعن إنقاص الماء أو تغويره.. وقد بُنِيت على هذه التوجيهات أساطيل من الفقه المكتوب الذي يرقى الآن لأكثر مما يوصي به هذا "العلم الحديث"!

إذا كان رجلٌ أميٌّ قبل خمسة عشر قرنا قد قال بهذا كله.. أليس من العلم نفسه أن يُعد مصدراً للمعرفة؟! إن لم يكن إيماناً بأنه رسول الله فعلى الأقل وقوفاً أمام هذه الظاهرة العجيبة لهذا الحكيم العبقري الذي سبق العصور وخرق الأزمان وتفوق على العلوم؟

إنما هو أمرٌ قاله الله في كتابه بهذه البساطة الـمُعجزة المبهرة: (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل: آلله أذن لكم؟ أم على الله تفترون؟).. هذه الآية تطرح على البشرية كلها سؤال: مصدر المعرفة؟ من الذي يملك أن يقول هذا حلال فكلوه وهذا حرام فاجتنبوه؟ من الذي يستطيع أن يهدي إلى الحق؟ اسمع قول الله تعالى (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ قل: الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يُتَّبَع أم من لا يَهِدِّي إلا أن يُهدى؟ فما لكم كيف تحكمون؟)

وإذن، فإذا كان العلم لا زال يكتشف ويبحث ويحاول الربط بين الظواهر بوسائله التي لا تزال قاصرة غير قادرة على أن تعصمنا من الضرر، ثم إذا كان هذا علم رجل أمي قبل خمسة عشر قرناً.. فما الذي يجعل قول هذا الرجل الأمي عن انتشار الفاحشة وإذاعتها وكونه سبباً في ظهور الأوبئة محتاجاً إلى ختمٍ علمي كي يُعتمد ويُتَّبَع؟!

ولو تنزلنا وسلَّمنا جدلاً وفرضاً بموقف العلمويين هذا، فأيهما أحسن للإنسان وأحسن للناس جميعاً: رجل يتبع النبي محمداً صلى الله عليه وسلم فإذا أصابه

الطاعون اعتزل في بيته محتسباً عند الله أجر الشهيد؟ أم رجل اتبع العلم فلم يجد عنده مؤنساً من اليأس ولا ترغيباً في أجر ولا رادعاً من عقوبة فخرج يترك لعابه على الأبواب والمتاجر والمصاعد والمواصلات يريد أن ينشر المرض بين الناس عامداً، لسان حاله يقول: إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القَطْر؟!

أيهما أحسن للمرء ولبني الإنسان كلهم؟



(٤)

بدأ كورونا في الصين، وعلى نحو ما هو معروف للجميع فإن الصين قد سكّتت وصمتت وحاربت من يتكلم عنه خشيةً على تجارتها واقتصادها حتى فشا فيها المرض، ثم فشا في بقية البلاد، فاستيقظ العالم وإذا بالمرض قد انتشر فيه جميعاً..

●● وتحاول الصين الآن أن تهرع لمساعدة البلاد المنكوبة بما تستطيع، وهي تجد تجهماً وهجوماً شرساً عليها وعلى ما تسببت فيه جراء طغيانها وقهرها وكبتها وغموضها وتعميتها على العالم بشأن المرض، والآن هي اللحظة المثلى لكل ديمقراطي ليبرالي أن يتكلم عن الخطر الشديد الذي تسببه دولة ديكتاتورية شمولية لا على نفسها بل على العالم كله، وأن العالم كله يدفع ثمن وجود نظام ديكتاتوري واحد.

ونحن معه في هذا ونُسَلِّم له به.. ها هو العالم كله يذوق ويلات قبوله وسكوته على وجود نظام طغياني جبار، تسبب بسياسته غير الشفافة هذه في قتل آلاف البشر على بعد آلاف الأميال!

ولو عاد الزمن بأكثر الموتى وأهاليهم، وعلموا شيئاً من أمر الغيب، لكنت ترى أن محاربة الصين وتغيير نظامها ولو بالقوة هو عمل ينبغي أن يكون على رأس أولويات العالم..

مهلاً لحظة.. أراهم هنا يتحدثون عن "جهاد الطلب".. أليس كذلك؟!

أليس جهاد الطلب نفسه هو مطاردة الظلم والطغيان والشر في عقر داره، بلا احترام لمعنى السيادة على شعبه؟!

نعم.. نعم، أعرف أن الأمة الآن لا تحلم بجهاد الطلب بل هي عاجزة عن جهاد الدفع، وأنا أكتب لكم هذه السطور من موقعي كلاجئ مشرد، لا يدري هل يُسْجن غداً أو يُقْتَل بعد غد.. نعم، أعرف هذا.. وأعرف معه أيضاً أننا ينبغي أن نفهم ديننا ونستوعب معانيه لا أن نسارع لرفضها واستنكارها لأنها لا توافق الذوق السياسي المعاصر، فإذا فهمنا ديننا افتخرنا به، وذلك أول طريق العزة..

فالظاهرة التاريخية كما يقول ريتشارد كوك وكريس سميث في كتابهما: انتحار الغرب أن كل الذين غيروا العالم إنما هم الذين اعتقدوا في أنفسهم القدرة على إنقاذه. وها قد جئت بالمعنى من قول الكافرين، لأني أعرف أن نفوساً لن تستوعبه إذا قلته من كتاب رب العالمين (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)!

لقد أخبرنا ربنا أن عقابه حين ينزل لا يصيب الظالمين وحدهم، بل يشمل معهم المظلومين (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)، قال ابن عباس: "أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب". وصوَّر لنا نبينا هذا الوضع أجمل وأشمل ما يكون التصوير، وذلك

في حديث السفينة المشهور، وفيه أن الذين في أعلى السفينة لو تركوا الذين في أسفلها يتصرفون على هواهم ويخرقون السفينة فإنهم يهلكون جميعاً، فأما إذا تصدوا لهم (ولم يحترموا حريتهم في التصرف في نصيبهم!!) فإنهم ينجون جميعا!.. واقرأ هذه المعاني في أساليب متنوعة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي باب الجهاد.



هذه الآيات وأمثالها، وهذه الأحاديث وأمثالها كانت تأسيساً لثورة المسلمين على الطغاة منهم، وعلى الطغاة من غيرهم، من هنا كانت مطاردة المسلمين للمنكر في الأرض كلها رحمة للعالمين، جهاداً في سبيل الله، وقد أحسن الأستاذ الراحل جلال كشك حيث قال: "الجهاد ثورتنا الدائمة"!

(٥)

انقلب حال العالم، ومكث الناس في بيوتهم، وتعطلت الطائرات والاجتماعات وحتى الحفلات ومباريات الكرة.. يخاف الإنسان من الموت (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۞ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ). وها قد ظهر لكلٍّ منا أن كثيراً من الأمور يملك أن يتخلى عنها، بعضها هين وبعضها مع نوع من الألم والمعاناة، إلا أن خطر المرض الذي يُحتمل معه الموت أكبر من ألم الترك.

يشبه هذا مشهداً قديماً..

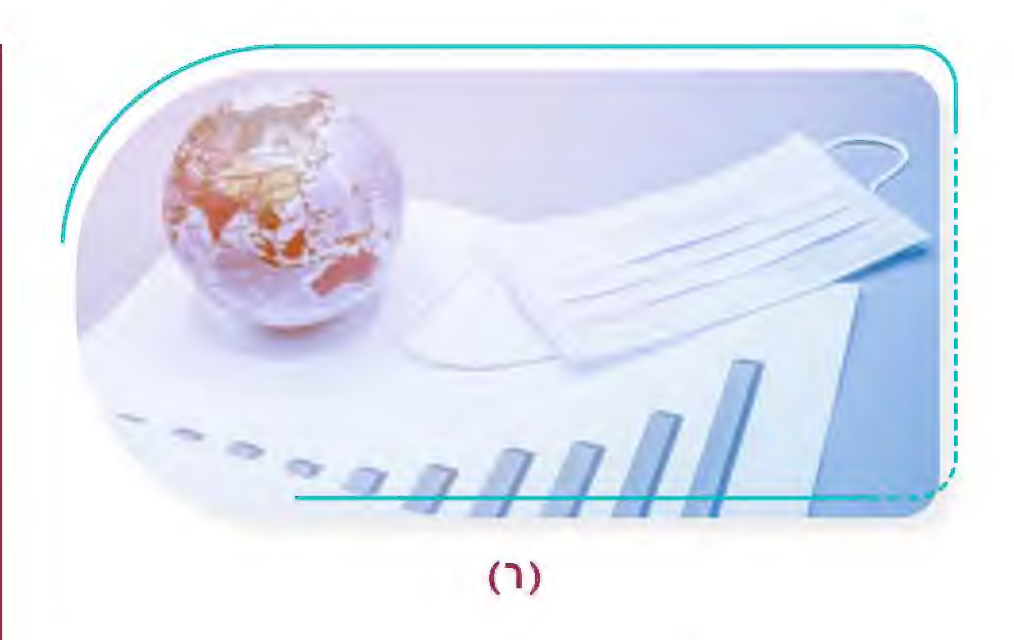
مشهد المدينة المنورة حين نزل أمر الله بترك الخمر، فإذا بأزقة المدينة تسيل بالخمر التي كسَر المسلمون أوانيها. وكذا مشهدها حين نزل أمر الله بحجاب النساء فكانت النساء تشققن مروطهن فيحتجبن بها.. إلا أن أسلافنا من الصحابة الأجلاء لم يكونوا يخشون من الموت، بل كانوا يخشون النار..

كانت الخمر عادة عربية راسخة، وكذا كانت ثياب النساء.. وانتهى هذا حين كان داعي التغيير أقوى من داعي العادة والميل والشهوة. سيظل هناك من يذنب ويعصي في كل الأحوال (كما سيظل في الناس من يخترق حظر التجول بالتأكيد)، لكن هذا هو الشذوذ النادر وليس هو الأصل العام.

إذن نستطيع، ويستطيع الناس، في ظروف ليس بالهائلة المريعة أن تنقلب حياتهم.. ونحن نرى هذا بأنفسنا في أنفسنا حين يأتي رمضان. ينقلب شأن اليوم كله، فإذا بالطعام -وهو أرسخ العادات كلها- نتحمل الحرمان منه وانقلاب مواعيده، ذلك أن داعي طاعة الله وصوم الشهر الكريم أكبر في نفوسنا من ألم الجوع في النهار.

إن شهواتنا تحبس قدراتنا وطاقاتنا وإمكانياتنا، تحرمها من الظهور والنمو والفعالية.. وإن أطماعنا في الحياة والأموال والرفاهية تثقلنا وتعوق حركتنا، ولذلك فطن الإمام ابن حجر إلى أن من فضل الطاعون "تقصير الآمال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزود للرحلة".

على أننا مهما حاولنا تذكير أنفسنا بهذه المعاني فلن نفلح في أن نعيشها، وليس يعيشها إلا المجاهدون، أولئك الذين يقترب الموت منهم في كل لحظة، فالواحد منهم متخفف من دنياه مقبل على آخرته، قصير الأمل قليل الطمع.. ولعل هذا من معاني كون الجهاد "ذروة سنام الإسلام"، إذ هو يرفع صاحبه ليكون في ذروة اليقظة وذروة الاستعداد.



(٦)

بدا العالم وكأنه هشٌّ في مواجهة انتشار كورونا، المنظومات الصحية في الدول الغربية "المتقدمة" تضطرب وتفقد توازنها.. وظهرت طبيعة الدول التي لا تحفل بشأن الأخلاق، وتكرر استيلاء دولة على شحنة مساعدات طبية قادمة لدولة أخرى، كما تكررت شكوى دول أوروبية من التجاهل الأوروبي لمعاناتها، كذلك أبدى ترمب انزعاجه من أن يتوصل أحد إلى علاج كورونا ثم لا يكون الأمريكان أول من يستفيدون منه، وأصدر قراره بتسريع إجراءات هجرة الأطباء إلى أمريكا ليترك هؤلاء أهلهم وديارهم ويذهبوا لعلاج الأمريكان.

هذه المشاهد المريعة التي يجب أن تعيد إلينا التفكير في طبيعة النظام الدولي، وخرافات القانون الدولي والعلاقات الدولية والتعاون الدولي وسائر هذه المفاهيم التي تظهر في أوقات الرخاء كقيود حريرية تُسْتَعبَد بها الشعوب.

وهذا الذي حصل بين الدول حصل مثله في الشعوب.. الشعوب الأوروبية "المتقدمة" التي افترست المتاجر، وأحياناً اقتحمتها وسلبتها ونهبتها، فضلاً عن التعامل الشنيع مع المسنين والعجائز إما كمرضى أو كمقيمين في دور العجزة أو حتى كزبائن لا يستطيعون المزاحمة. وهو ما يجب أن يعيد إلينا الثقة

بأنفسنا وينقض عند كثير منا ما أصيبوا به من عقدة الخواجة وتوهم أن القوم ينطوون على أخلاق أصيلة لديهم منحها إياهم رقيهم الحضاري.. والحق أنها أخلاق زائفة تسود في لحظة الأمن والطمأنينة واستتباب النظام.. وإلا فمن الذي احتلنا ويعيش حتى الآن على ثرواتنا المسروقة؟

هذه المشاهد تكلم فيها كثيرون، لكن من بينها مشهد لم يحظ بالقدر الذي يستحقه من النقاش، ذلك هو: تزاحم الأمريكان على متاجر شراء السلاح جراء شعورهم باحتمال حدوث الفوضى واحتياج الواحد منهم إلى حماية نفسه وممتلكاته. ويناظره على مستوى الدول: تهديدات ترمب المتعلقة بعلاج كورورنا.

وقد أثار البعض في عالمنا سؤالاً يبدو رصيناً ولكنه ينطوي على نظرة حالمة ساذجة، ذلك هو المفاضلة بين إنفاق المال على التسلح وإنفاقها على التجهيزات الطبية، الاهتمام بتطوير السلاح أو الاهتمام بتطوير المعامل والأجهزة الطبية.. يقولون: ها قد بدا للعالم أن الإنفاق على السلاح وتطويره لم ينقذكم من الوباء، وكان الأولى أن تنفقوا على الطب والأبحاث.

هذه نظرة حالمة ساذجة، ويجب أن يكون واضحاً أن الإنفاق على العلم يخدم السلاح والطب معاً، والأغلب أن الدول التي أنفقت على اختراع السلاح وتطويره هي التي تتمتع بأفضل وضع في التجهيزات الطبية، بينما المتخلفون الذين يسرفون في شراء السلاح هم أنفسهم الذين يسرفون في شراء الأجهزة الطبية، ويتمتعون في نفس الوقت بجيوش ضعيفة ومنظومات طبية ضعيفة.. على أننا سنسير وراء إغراء المفاضلة بين الطب والسلاح، ونسأل: إذا لم يكن لدينا خيار ثالث فأيهما أوجب: الإنفاق على اختراع السلاح وتطويره أم الإنفاق على الأبحاث الطبية؟

ربما في عالم الأحلام والعالم الإنساني الواحد الذي يعمه السلام سيكون علينا الإنفاق على الأبحاث الطبية، أما في عالمنا هذا الذي تنهش فيه الدول

بعضها والبشر بعضهم، فلا بد أن يكون الجواب هو الإنفاق على السلاح.. فالقوي المسلح هو الذي يستطيع أن يسلب الضعيف تجهيزاته الطبية ويحتكر لنفسه نتائج الأبحاث الطبية التي قام بها، وسيجبر القويُّ المسلحُ الطبيبَ الضعيف على علاجه وعلاج عصابته قبل أن يعالج الطبيب أباه وأمه وأهله، هكذا سيكون الأمر تحت قوة السلاح!



تنمو الحضارة بثلاثة أضلاع: العلم والسلاح والمال، وتظل متفوقة طالما أن الأضلاع الثلاثة تعمل على تقوية بعضها البعض؛ العلم يطور السلاح ويبتكر موارد المال، والسلاح يحرسهما ويأتي للعلم بالخبرات وللمال بالموارد الجديدة، والمال يغذيهما بالخبرات وبالإنفاق على تطورهما.. وحين ينهار ضلع من أولئك، أوْ لا تعمل المنظومة بما يجعل الأضلاع الثلاثة تخدم بعضها البعض تبدأ الحضارة في الانهيار، وساعتها تقع الحضارة الزاهية المتفوقة علمياً تحت أقدام الغزاة مهما كانوا أقل في درجة التطور العلمي والرقي الحضاري.

في ساعة الفوضى سيكون اللص أقرب إليك من الفيروس، وأقدر على الفتك بك وبأهلك ومالك من المرض نفسه، وساعتها لن ينفعك جهاز التنفس الصناعي ولا علم الطب الذي في رأسك، ستنفعك القوة التي في يدك، والتي تستطيع أن تحميك.. هذا ما يدركه الناس بفطرتهم فيتحركون إليه كلٌّ بحسب قدرته، فمنهم من آخر قدرته أن يُخَزِّن الغذاء والدواء وأن يسحب ما يستطيع من أمواله المحبوسة في البنوك، ومنهم من قدرته أن يقاتل عن نفسه أو يقاتل ليسلب من غيره مأكله ودواءه وماله.

على أن الأمريكان من ضمن الشعوب المحظوظة التي تتمتع بحق التسلح، بينما بلادنا العربية المنكوبة بأنظمتها هي ضمن البلاد المنكوبة بأنظمتها الأخرى التي تجعل هذا الحق مسلوباً من الشعوب، ومن ثمَّ فإن الشعوب في حالة الاستقرار أسرى بيد السلطة تظلمهم وتهبهم كيفما شاءت (بالقانون الذي تُفَصِّله طبعاً)، وفي حالة الفوضى أسرى بيد الخارجين على القانون الذين تسلحوا رغم أنف السلطة أو بمخادعتها. (للمزيد في هذا، اقرأ: مصير المواطن الصالح، نكبة الشعوب العزلاء)



وفي الواقع، ما لم تحصل شعوب أمتنا على حق التسلح هذا، فستظل الأمة ضعيفة ومقهورة وفي واقع احتلال وهزيمة، والحكومات المخلصة للشعوب الناهضة النامية تعرف أن قوتها في قوة شعبها المسلح، فالشعوب المسلحة عصية على الاستبداد وعصية على الاحتلال كذلك، وهكذا كانت شعوبنا المسلمة قبل عصر "الدولة الحديثة"، وكان المتطوعون في قصة كل جهاد ضد الاستبداد أو الاحتلال، حتى جاءت هذه الدولة الحديثة بجيشها الرسمي فصارت هزيمة الجيش تساوي سقوط الدولة (وكانت قبل ذاك تساوي بدء المقاومة الشعبية) ودخول العاصمة يساوي احتلال البلد كله (وكانت قبل ذلك تساوي بدء انتفاضة الأنحاء).

(٧)

بنى الإسلام نظامه الاجتماعي على منهج تتعدد فيه مراكز القوى، فالسلطة قوية، والمجتمع قوي كذلك، وبينهما شبكة من العلماء يتمتعون باستقلالية ونفوذ تجعلهم في منطقة وسط بين السلطة وعموم الناس.

ولكي لا تجور السلطة على الناس حرص الإسلام على أن يكون المجتمع شديد التماسك والتعاضد والتكافل، وجعل صلاحيات السلطة محدودة ومُسَمَّاة، وجعل شرعيتها مرتبطة بالتزامها الشريعة وجعل للناس حق الأمر بالمعروف وإنكار المنكر باليد واللسان فضلاً عن القلب.

ولشدة حيوية المجتمع الإسلامي وقدرته على الثورة كان المجتمع مأموراً بالسمع والطاعة للحكام في غير معصية طالما كان انحرافهم بسيطاً. (للمزيد في هذا انظر كتاب "منهج الإسلام في بناء المجتمع"، وانظر: كيف نفهم أحاديث طاعة الأمراء).

هذا المنهج في بناء المجتمع بقدر ما يجعل المجتمع قوياً عصياً على أن يُستبدَّ به، بقدر ما يجعله أقدر على علاج مشكلاته وأسرع في الحركة لمعالجة نكباته، ومنها الأوبئة والطواعين.. وهذا على عكس نظام الدولة الحديثة الذي يجعل السلطة تحتكر كل شيء وتنظم كل شيء وتراقب كل شيء، وليس للمجتمع ملجأ إلا هي.

والدول "المتقدمة" التي تعمل منظومة الدولة الحديثة فيها لخدمة الشعب ما إن تنزل بها كارثة أو نكبة حتى تسارع فتناشد المواطنين والمتطوعين والمجتمع الدولي أيضاً بمساعدتها في احتواء هذه النكبة وتقليل آثارها، أي أن المنظومة الحديثة غير قادرة وحدها على استيعاب الطوارئ والمشكلات رغم ما لديها من الصلاحيات الواسعة والترتيبات المتطورة والإدارات التفصيلية المزودة بالخطط والمقترحات والاستعدادات.

فإذا كان هذا حال الدول "المتقدمة" في النكبات، فكيف يكون حال دولنا نحن التي صُمِّمت أساساً لا لخدمة الشعوب بل لقهرها، لا لمصلحة الناس بل لمصلحة السيد الأجنبي (لذلك قدَّم النظام المصري مساعدات للصين التي تساعد دول العالم ولإيطاليا بينما المصريون أنفسهم في أمس الحاجة إلى المساعدة مع انهيار منظومتهم الطبية التي لا يجد فيها الأطباء حتى الكمامات!).. كيف يكون حالنا؟



إنه لا سبيل أمام الشعوب في مثل هذه النكبات إلا أن تحيي من جديد قيم التكافل والتعاضد والتماسك، صلة الأرحام ومعنى العشيرة والقبيلة وأهل الحي وأهل الشارع، هذه الدوائر الصغيرة القريبة تستطيع أن تنقذ نفسها لأن الدولة لن تفكر في إنقاذها أصلاً.

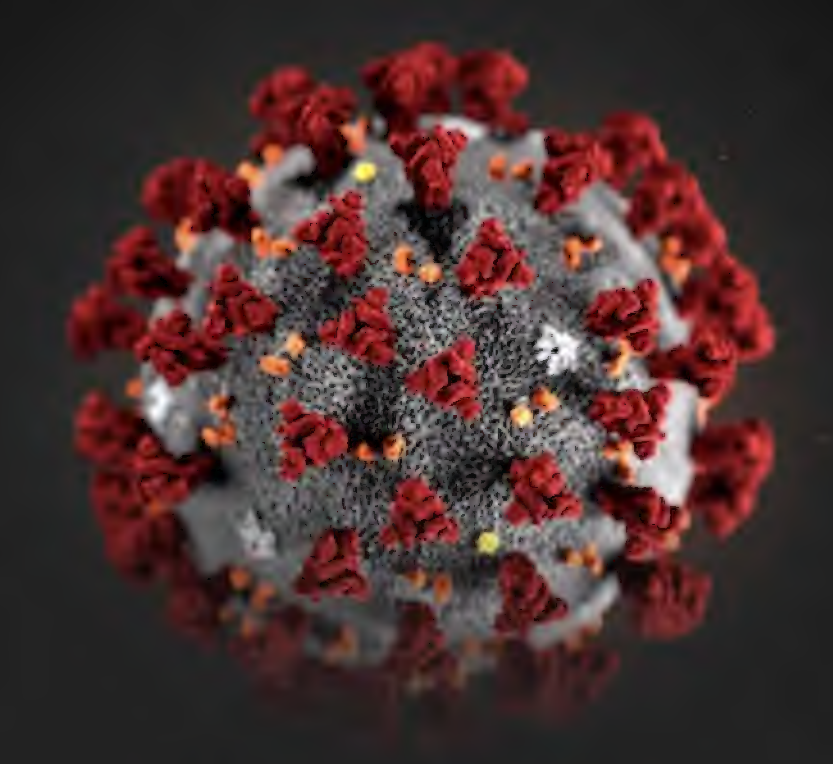
يجب أن يوجد في كل حي أو قرية متطوعون ينتدبون أنفسهم لتنظيم أمر القرية أو الحي وموارده ووضع نظام لمعرفة المصابين وكيف يمكن إيواؤهم وعزلهم صحياً والتصرف بما تحت أيديهم من إمكانيات ومبان ومركز صحي، وهم أعرف بمن فيهم من الأطباء والممرضين ومن يملكون المساعدة في التسجيل والرعاية والنقل، ومن يستطيع منهم أن يكفل الفقراء والمحتاجين الذين يتضررون بتوقف الأعمال، إلى آخره إلى آخره.. والعهد بالناس أنهم إذا انطلقوا استطاعوا إدارة أمورهم بأفضل مما تستطيعه السلطة المحترفة فكيف بالسلطة الفاسدة التي هي المرض الأكبر والوباء الأخطر؟!



لقد أثنى النبي على الأشعريين، إذ كانوا حين تنزل بهم النازلة من المجاعة أو من غيرها يجمعون ما لديهم، ثم يقسمونه بحسب الحاجة على بعضهم، وهذه هي الصورة المثالية للمجتمع المسلم، إنها الصورة الضرورية التي تنتج عن مجتمع يلتقي أهل شارعه في اليوم خمس مرات، يعرفون حقوق الجار، لا يبيت أحدهم شبعاناً وجاره جائع، يخرجون الصدقات والزكوات للفقراء المحتاجين والأقربون أولى بالمعروف، مجتمع تتوطد فيه صلات الرحم، تنتشر فيه أعمال البر والوقف والتزاور.. الإسلام بنى مجتمعاً مكيناً راسخاً، ولا بد أن تعود هذه الصورة طاعةً لربنا أولاً وإنقاذاً لأنفسنا وأهلنا ثانياً.

هذا هو الحل..

ولو استطاعت شعوبنا أن تفعله، فلربما كانت هذه هي الخطوة الأولى في بداية استقلال الأمة وعودة عزها ومجدها.



جائحة كورونا..

تداعيات مزلزلة ومستمرة

د. هشام كمال

مع تفشي وباء "كوفيد19- (COVID-19)"، الناتج عن فيروس كورونا المستجد، على نطاق دولي، وإعلان منظمة الصحة العالمية له كوباء عالمي في 11 مارس ٢٠٢٠م، تتزايد معه حدوث التداعيات ليس الصحية فحسب، بل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتي يصنفها بعض الخبراء على أنها قد تؤدي إلى إحداث تغيير جيوسياسي كبير على مستوى العالم كله، وربما ينتج عنها تغيير في النظام العالمي الحالي برمته.

بعض العوامل المتسببة في اتساع رقعة انتشار الوباء حتى الآن:

(١) تعامل بعض أنظمة الدول مع المرض في بدايات انتشاره على أنه مسألة أمن قومي، بما في ذلك الصين - منبع الوباء - ومصر وإيران، ما سمح بانتشار المرض على نطاق عالمي في وقت قياسي.

(٢) تعامل بعض الدول باستخفاف مع المرض، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، وإيطاليا التي أصبحت من أكبر البؤر العالمية الحالية فيما يتعلق بانتشار ونشر المرض.

(٣) استمرار تعامل بعض الأنظمة الدولية بنظام الاتهامات المتبادلة، والمكايدات السياسية، ومحاولاتهم الاستفادة من الأزمة لتكريس سيادتهم عالمياً، وذلك على حساب التركيز في مكافحة الوباء.

(٤) العولمة، والتي انقلبت ميزاتها المتعلقة بسهولة وسرعة السفر من وإلى مختلف بلاد العالم إلى أسباب تزيد من معدل انتشار الوباء عالمياً.

(٥) استمرار فشل العديد من الدول على الصعيد الداخلي فيها في تطبيق نظام التباعد الاجتماعي والعزل الصحي الاختياري والإجباري بشكل متناسب مع سهولة انتشار الفيروس بين السكان.

(٦) النقص الحاد في وسائل وأدوات الكشف عن حالات الإصابة في مختلف دول العالم، وكذلك النقص الحاد في المعدات والتجهيزات الطبية اللازمة لعلاج الحالات المصابة.

(٧) جهل العديد من الدول لاسيما في بداية الكشف عن المرض بالوسائل الصحيحة للكشف عن المرض.

(٨) عدم وجود لقاح للوقاية من المرض، والحاجة لوقت طويل نسبياً قد يمتد من ١٢ إلى ١٨ شهراً لإيجاد لقاح وتصنيعه بشكل يبدأ معه منحنى تفشي الوباء في الهبوط.



التداعيات الاقتصادية للجائحة

حتى الآن، تعد التداعيات الاقتصادية للوباء أكبر التداعيات بعد خسارة الأرواح، حيث تعدت تلك التداعيات حدود الدول، ولم تقف عند دولة بعينها، مع زيادة كبيرة للآثار في الدول صاحبة معدلات الانتشار المتزايدة والواسعة للمرض. وكان مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الأونكتاد) قد كشف في دراسة تحليلية أن الصدمة التي تتسبب بها كورونا ستؤدي إلى ركود في بعض الدول، وستخفّض النمو السنوي العالمي هذا العام إلى أقل من ٢.٥%، وربما تؤدي إلى عجز في الدخل العالمي بقيمة ٢ تريليون دولار.

ومن التداعيات والآثار الاقتصادية:

(١) زيادة معدلات البطالة بشكل كبير للغاية:

اضطرت الكثير من الشركات والمؤسسات والأعمال الصغيرة والمطاعم وأماكن تقديم الخدمات العامة والخاصة لإجبار الموظفين على العمل من المنزل في إطار المحاولات المبذولة للحد من انتشار العدوى، علاوة على الاضطرار إلى تسريح الكثير من الموظفين والعمال، وهو ما أدى إلى معدلات بطالة مرتفعة في العديد من الدول، بما في ذلك الولايات المتحدة، والتي تزداد معدلات تسجيل طلبات التأمين ضد البطالة فيها بشكل يومي، حيث سجلت الأسبوع الماضي فقط أكثر من ٢٨٠ ألف طلب، بزيادة تقارب ٧٠ ألف طلب عن الأسبوع السابق، والذي سُجّل فيه حوالي ٢١١ ألف طلب، وقد سجلت ولاية بنسلفانيا وحدها ١٢١ ألف طلب في الأسبوع الماضي. وتنبع مخاوف كبيرة بالولايات المتحدة إزاء تسارع معدلات البطالة بشكل غير مسبوق (تعدت في سرعتها أزمة ٢٠٠٩-٢٠٠٨)، ما يجعل من الصعب على الخبراء التنبؤ بما ستؤول إليه الأوضاع في المستقبل، لاسيما في ظل مخاوف بشأن احتمال انهيار نظام التأمين ضد البطالة ما لم يتخذ الكونجرس إجراءات سريعة لضخ الأموال وتغيير قواعد النظام التقليدي لذلك التأمين.

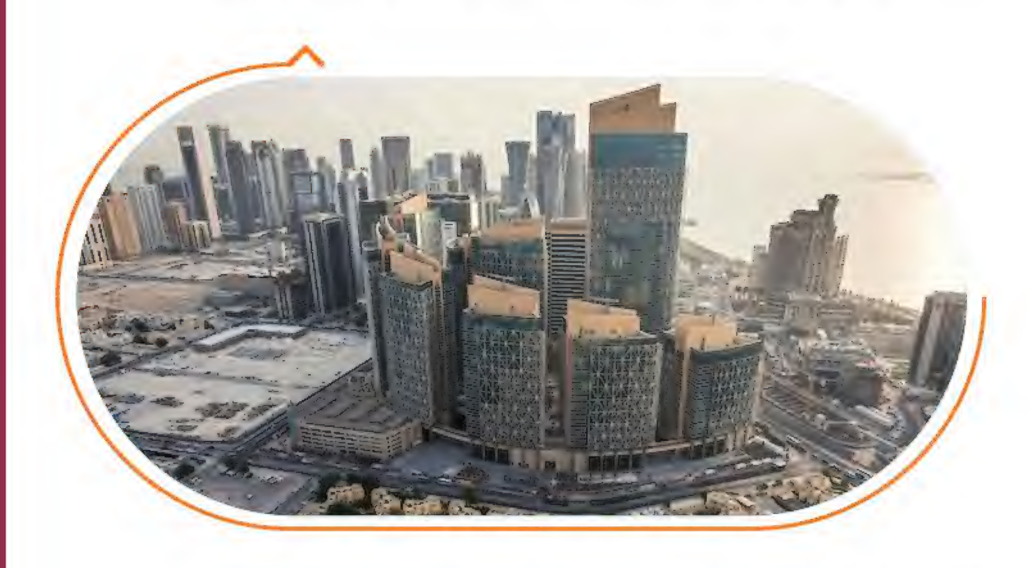
ولا يتوقف الأمر بطبيعة الحال على الولايات المتحدة، فمعدلات البطالة تزيد بوتيرة كبيرة على المستوى العالمي، ومرشحة للتزايد مع تفاقم الجائحة.

(٢) تقلص معدلات العرض، وضعف الطلب في الأسواق بشكل كبير:

مع إغلاق المصانع والشركات وغيرها من المؤسسات، يقل المعروض من البضائع والسلع في الأسواق، ويزداد الطلب بشكل كبير في بداية الأمر، ثم يتقلص بعد ذلك لأسباب عديدة، منها ازدياد معدلات البطالة، وانخفاض القوة الشرائية مع حاجة الناس لتقليص نفقاتهم نظرا لقلة أو انعدام الدخل.

(٣) توقع حدوث موجات إفلاس متتالية للعديد من المصانع والشركات والمؤسسات الكبيرة والصغيرة:

• والتي يمكن أن تحدث نتيجة انخفاض الطلب بشكل كبير أو انعدامه في العديد من البقع الجغرافية مع تفاقم الجائحة، وتزايد أزمة الديون، وانخفاض قيمة الأصول، لاسيما في الدول المتأثرة بشدة بانتشار العدوى، ومن المعروف أن تعرض تلك المؤسسات للإفلاس يعد من العوامل المهمة في زيادة معدلات البطالة، فهي دائرة مفرغة تدور في فلكها الأعمال التجارية والعاملون فيها. ومن جهتها، لم تستبعد دراسة الأونكتاد سالفة الذكر حدوث إفلاس واسع النطاق، والذي يمكن أن يتسبب في انهيار مفاجئ لقيم الأصول.



(٤) التأثر السلبي لسلاسل الإمداد لكثير من المنتجات بشكل كبير:

• ويأتي هذا التأثر كنتيجة كبرى للعولمة في المجال الاقتصادي، حيث أدت العولمة إلى خلق حالة من التخصصية المفرطة على مستوى العالم، وأصبح المنتج الواحد، يُصنَّع في أكثر من دولة، سواء في مصانع تابعة لشركة واحدة تتواجد أماكن إنتاجها وتوريدها في عدة دول، أو في عدة شركات متفرقة في عدة دول.

وكمثال على ذلك: تأثر إنتاج العديد من طرازات السيارات الأوروبية في الفترة السابقة بإغلاق مصنع تابع للشركة الإيطالية "إم تي أيه أدفانسيد أوتوموتيف سوليوشنز "MTA Advanced Automotive Solutions المتخصصة في إنتاج إلكترونيات حيوية لازمة لتشغيل سيارات رينو، وبيجو، وبي إم دبليو، وجاكوار، ولاندروفر في شنغهاي في الصين إبان معدلات الانتشار الواسعة للوباء فيها، ثم بعد حلول ١٧ فبراير وإعادة فتح المصنع، تم إغلاق مصنع الشركة في إيطاليا بعد ضرب الوباء لها، ما تسبب في توقف أكبر سلسلة توريد لإلكترونيات السيارات في غرب أوروبا.

كما حدث نقص حاد في سلسلة إمداد الكواشف المستخدمة في تشخيص "كوفيد19-" على المستوى العالمي، بسبب عدم استطاعة الشركتين المتخصصتين في إنتاج وتصنيع هذه الكواشف، وهما شركتا "روش Roche" السويسرية، و"كياجن Qiagen" الهولندية (استحوذت عليها حاليا الشركة الأمريكية "ثيرمو فيشر ساينتيفيك [Thermo Fisher Scientific])، في تلبية الطلب العالمي المتزايد على خلفية تسارع معدل انتشار الوباء.

وكذلك حدث نقص في سلسلة الإمدادات الخاصة بأجهزة الحاسوب، حيث قل إنتاج أجهزة الحاسوب المحمولة بنسبة ٥٠ % في فبراير، وتقلص كذلك إنتاج الهواتف الذكية بنسبة ١٢ %، علاوة على إشارة "منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)" بأن انخفاض الإنتاج في الصين له آثار غير مباشرة في جميع أنحاء العالم، نظرا لدور الصين في إنتاج أجهزة الحاسوب والإلكترونيات والأدوية ومعدات النقل، وكونها مصدرا أساسيا للطلب على العديد من السلع.

ولعل الأهمية الكبيرة لسلاسل الإمداد في ظل العولمة هو ما حدا بمسؤولين دبلوماسيين دوليين إلى التأكيد على ضرورة الحفاظ على العلاقات الاقتصادية العالمية من جهة، وضرورة التعاون لإبقاء سلاسل الإمداد والتوريد مفتوحة، وعدم تعريضها للكسر.



(٥) مخاوف من انهيار سعر النفط:

وهو الهاجس المسيطر على كثير من الأسواق العالمية، والذي طغى في بعض البلدان على المخاوف الصحية، ما يشير إلى كونه عاملا مثيرا للقلق والذعر، وهو ما يؤدي كذلك إلى صعوبة التنبؤ بحالة الأسواق. ومن المتوقع تبعا لذلك أن تتأثر الدول المصدرة للنفط بشكل كبير، حيث يمكن أن تفقد تقدر بأكثر من ١ % من نموها.

(٦) تأثر قطاع الطيران على مستوى العالم:

مع الوقف الإجباري لمعظم رحلات الطيران من وإلى العديد من دول العالم، وكذلك الرحلات الداخلية في كثير من الدول، تتفاقم أزمة شركات الطيران، حيث توقع "الاتحاد الدولي للنقل الجوي (إياتا، IATA)" انخفاض إيرادات قطاع الطيران على المستوى الدولي لعام ٢٠٢٠ بما يقارب ٢٥٠ مليار دولار، كما يتوقع مركز (CAPA) للطيران الاستشاري إفلاس معظم شركات الطيران في العالم والتي قامت بتسريح أعداد كبيرة من العاملين بها - بحلول مايو ٢٠٢٠ في حال استمرار الأزمة وعدم تدخل الحكومات لدعم شركات الطيران.

وعلى ناحية أخرى، خسرت شركات الطيران في الشرق الأوسط إيرادات بقيمة ٧.٢ مليارات دولار. وفيما يتعلق بمصر، قد يؤدي فيروس كورونا إلى خسائر تقدر بنحو ٢ مليار دولار من الإيرادات الأساسية، حسب توقعات مجموعة من أصحاب شركات الطيران المصرية الخاصة، وتهديد ١٣٨ ألف وظيفة، حسبما أفاد الاتحاد الدولي للنقل الجوي.

(٧) تأثر قطاع السياحة بشكل شبه كامل في معظم بلاد العالم:

تأثر قطاع السياحة بشكل كبير للغاية في العديد من بقاع العالم، بما في ذلك مصر وتركيا والإمارات (دبي) وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة، وغيرها من الدول، بسبب الحجر الصحي الذاتي وتوقف رحلات الطيران. وقد صرح بولوت باغجي، رئيس معهد منتدى السياحة العالمي في تركيا، بأن خسائر سوق السياحة العالمية قد تبلغ تريليون دولار هذا العام، حيث بلغت فعليا حتى الآن ما يقارب 600 مليار دولار، مع وجود تهديد بفقدان ما يقارب ٥٠ مليون وظيفة في القطاع على مستوى العالم، وكذلك وجود مشكلة أخرى كبيرة تتمثل في بطء التعافي المستقبلي للقطاع حتى بعد انتهاء الأزمة بشكل كامل.

وفي تركيا نفسها، تأثر قطاع السياحة بشدة، والذي يمثل نسبة لا تقل عن ١٠ % من الاقتصاد التركي، وأغلقت العديد من الأماكن والشركات السياحية، علاوة على تسريح بعض الشركات للعاملين فيها.

وعلى ناحية أخرى، كان من ضمن الأسباب التي جعلت النظام المصري يتباطأ في إعلان وجود إصابات بمصر هو الخوف على القطاع السياحي الذي يعتبره النظام مسألة أمن قومي.

ومن جهته، طلب حاكم ولاية هاواي من المسافرين تأجيل رحلاتهم إلى هاواي لمدة ٣٠ يوما، في سابقة لم تحدث من قبل في ولاية تعيش على السياحة الترفيهية، ما يشير إلى فداحة الوضع فيما يتعلق بالسياحة في أمريكا.



(٨) تأثر الأسواق الناشئة سلبيا بشكل كبير:

مع تأثر العرض والطلب، وإغلاق الدول لحدودها، وتقلص معدلات التبادلات التجارية الدولية، علاوة على تأثير حرب أسعار النفط الجارية منذ فترة بين المملكة العربية السعودية وروسيا، وكذلك انخفاض الطلب على الطاقة المتعلق بالتباطؤ الاقتصادي الناجم عن الجائحة، تتأثر الأسواق الناشئة بشدة من هذه الأزمة، وهو ما يؤثر بدوره كذلك على الأسواق العالمية، حيث يشير صندوق النقد الدولي إلى أن نسبة مساهمة الأسواق الناشئة في الاقتصاد العالمي حاليا تصل لما يقارب ٦٠ % ، وبالتالي فالتباطؤ الحادث والمتوقع زيادته مع تفاقم الجائحة في الأسواق الناشئة سيؤثر بدوره كذلك في الاقتصاد العالمي.

(٩) تقويض النظام الاقتصادي في العديد من الدول:

في حالة استمرار الجائحة لفترة طويلة، مع زيادة معدلات إفلاس الشركات، وتأثر الأسواق الناشئة، وغيرها من المؤثرات الحادثة، والمتوقع تفاقمها، ربما تحدث حالة من تقويض الأنظمة الاقتصادية في العديد من الدول من قاع تلك الأنظمة لقمتها (ابتداءً من الشركات والمؤسسات المتأثرة في أسفل النظام الاقتصادي إلى أعلى هرم ذلك النظام)، لاسيما في الدول الضعيفة، والدول التي تعاني أزمات اقتصادية، بما في ذلك الدول النامية.



(أ) على مستوى الحكومات:

من الأمور المنتظرة اجتماعيا في الأزمات رؤية التكافل والتضامن بين فئات المجتمع من جهة، وبين المجتمعات المختلفة المتأثرة من جهة أخرى. ومع الانخراط منذ سنوات عديدة في إطار العولمة تتوقع العديد من الدول مساعدة بعضها البعض في ظل هذه الجائحة، ولكن العكس هو المسيطر حاليا على صعيد الكثير من دول العالم، فقد أظهرت الأزمة أسوأ ما عند الحكومات من سلوكيات الأنانية وانعدام التضامن، فروسيا وألمانيا منعتا تصدير أقنعة الوجه "الكمامات" وأجهزة التنفس (تمثل أجهزة التنفس أزمة كبرى للغاية في العديد من الدول ذات معدل العدوى المرتفع، وأصبحت تلك الأجهزة من المستلزمات الملحة والضرورية بها، مع وجود عجز ضخم لدى العديد من الدول على رأسها الولايات المتحدة وإيطاليا) على الرغم من كون ألمانيا عضوةً في الاتحاد الأوروبي، كما استولت فرنسا من جهتها على مخزون الكمامات كاملا من الأسواق الداخلية بها، وفعلت الصين صنيعها من قبل إبان ذروة أزمتها، لكنها تفعل العكس حاليا لتسويق نفسها كقائدة جديدة، حيث أسرعت بالاستجابة لطلب إيطاليا العاجل بشأن المعدات الطبية، كما أرسلت مساعدات لكل من إيران، وصربيا، التي وصف رئيسها التضامن الأوروبي بأنه "قصة خيالية ".

(٢) على مستوى المجتمع:

مع ارتفاع الخسائر البشرية بشكل كبير، وارتفاع معدلات البطالة، والركود الاقتصادي غير المسبوق، قد تحدث موجات غضب شديدة، ومحاولات فوضى للحصول على مستلزمات الحياة الأساسية، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى استخدام العديد من الدول لقواتها العسكرية أو شبه العسكرية، مع احتمال بداية التفكك المجتمعي بالمواجهات الأهلية التي قد تستمر لفترات غير معروفة.



(ا) على مستوى الأفراد والجماعات:

أ المخاطر الاجتماعية المترتبة على الإجبار على العمل من المنزل، والدراسة المدرسية والجامعية عبر الإنترنت، ما سيخلق عالما افتراضيا إجباريا لملايين البشر عبر العالم، وما يترتب على ذلك من تداعيات انعدام التواصل الحقيقي، وانعزال مجتمعي على مستوى الأفراد والأسر والجماعات الإنسانية.

ب إغلاق الحدود ليس بين الدول فحسب، بل داخل الدولة الواحدة، لاسيما الدول الفيدرالية، وما ينتج عن ذلك مما يسميه بعض العلماء "العزلة القومية"، والتي يترتب عليها غياب التضامن الاجتماعي مع بقية الولايات أو المحافظات، وكذلك غياب التضامن مع بقع العالم الأخرى في ظل الانكفاء على الذات القومية، بل سيصبح الانكفاء على الذات البشرية المنفردة سمتا غالبا مع تفاقم الأزمة.

لم تتوقف التداعيات السياسية على مجرد إصابة بعض كبار الشخصيات أو المسؤولين ببعض الدول بالعدوى، ودخول آخرين حجرا صحيا اختياريا بعد مخالطتهم مسؤولين أو أقارب ثبتت إصابتهم، ولكن تعدت ذلك إلى وجود خطورة على قيام بعض الأنظمة في العديد من الدول، حيث أعدت الولايات المتحدة سبع خطط لفرض أحكام عرفية - تتخطى درجة سري للغاية - تفصل سيطرة قواتها المسلحة على الحكم في حالة تعطيل الجائحة لعمل الحكومة، حيث سيتم إخلاء الرئيس وعائلته، ووزير الدفاع وعائلته، وقادة مجلسي الشيوخ والنواب، وسيترتب على ذلك تخطي سلاسل القيادة المنصوص عليها في الدستور الأمريكي، واتخاذ القادة العسكريين لقرارات تسيير شؤون البلاد، وسيكون المسؤول وقتئذ هو قائد القيادة الأمريكية الشمالية (نورثكوم NORTHCOM) حاليا هو الجنرال تيرانس أوشونيسي الذي سيتم تفويضه لإدارة شؤون البلاد لحين القدرة على تنصيب زعيم مدني جديد.

وفي مصر، تتزايد مخاوف النظام العسكري المسيطر على الحكم فيها مع تزايد معدلات الإصابات داخل القوات المسلحة، ووفاة لواءين على الأقل من جملة عدد من القادة العسكريين سربت قائمة بإصابتهم بالعدوى يوم ١٣ مارس ٢٠٢٠، مع ترشح زيادة عدد الإصابات والوفيات وسط ضباط وجنود القوات المسلحة، والمسؤولين المدنيين الذين خالطوهم في الفترة الماضية.

من جهة أخرى، أدت الجائحة إلى إلغاء اجتماعات دولية عديدة، والاضطرار للجوء إلى عقد بعض الاجتماعات عبر الفيديو كونفرانس، علاوة على إثارة بعض الدول لنظرية المؤامرة فيما يتعلق بنشر الفيروس من أجل إضعاف دول أخرى، أو تحصيل مكاسب معينة.



تداعيات أمنية واستخباراتية:

(أ) على مستوى الأجهزة والشركات الاستخباراتية:

أ تداعيات تفشي فيروس كورونا وصلت لأجهزة الاستخبارات، حيث تعاني العديد منها على مستوى العالم من عدم استطاعة القيام بالمهام المطلوبة كما كان سابقا، فعلى سبيل المثال:

تعاني "المديرية العامة للأمن الخارجي (DGSE)" [وكالة الاستخبارات الخارجية الفرنسية] عدة مشكلات، منها: وقف المديرية لحملة التوظيفات الجديدة التي كانت قد بدأتها منذ فترة، وهي عملية حيوية لها في الوقت الحالي، علاوة على إجبار عملاء المديرية على العمل من المنزل، مما صعب مهامهم، حيث يحتاجون للولوج إلى ملفات مصنفة على أنها "سرية للغاية"، ولا يستطيعون الولوج إليها سوى من أجهزة الحاسوب المتواجدة داخل مقار المديرية نفسها، بالإضافة إلى تعطل عمل "الاستخبارات البشرية (HUMINT)"، والتي تعتمد على جمع المعلومات الاستخباراتية عبر الجواسيس على الأرض، وبخاصة في البلاد التي تعاني من تفشي الوباء بشدة، بما في ذلك الصين وإيران.

ومن جهتها، بدأت "وكالة الاستخبارات الدفاعية (DIA)" الأمريكية في بث مقاطع مرئية داخلية لاختصاصيين نفسيين، في إطار محاولاتها للتغلب على بعض التداعيات النفسية، مثل التوتر والقلق، بسبب تفشي الوباء وما يحدثه من آثار وتداعيات تطال عملاء الوكالة.

كما تعاني شركات الكيان الصهيوني العاملة في مجالات الاستخبارات السيبرانية من تقلص مبيعاتها بشكل كبير، وتعليق العديد من العقود [تعتمد تلك الشركات بشكل كبير على المبيعات الخارجية]، لاسيما مبيعات وعقود خدمات ما بعد البيع الخارجية، وبخاصة مع إغلاق العديد من الدول لحدودها وتأثر اقتصاداتها، حيث تشمل العقود المعلقة خدمات ما بعد البيع للأدوات والأجهزة الحساسة. كما سرحت بعض الشركات العديد من موظفيها. وعلى ناحية أخرى، أغلقت العديد من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية مقارها كذلك حاليا، في إطار الحد من تفشي الوباء بين منتسبيها.

ب تداعيات على خصوصيات الشعوب عبر الرقابة الأمنية الصارمة والجماعية: في ظل الأزمة، اتجهت عدد من الدول إلى ما يمكن أن يسمى "المراقبة الحيوية" أو المراقبة البيومترية، ومع أن الأمر لا يعتبر غريبا بالكلية من حيث توسع الدول الاستبدادية في استخدام تقنيات التعرف على الوجه وتقنيات التعرف على الصوت، كالصين مثلا، إلا أن البدء في إقرار برامج المراقبات والتتبع الأمني من قبل دول أخرى، والتوسع فيه، بحجة مراقبة الأشخاص المصابين بالعدوى قد يمثل نقطة تحول مهمة في تاريخ المراقبات الأمنية الجماعية، التي ستؤدي حتى إلى رقابة ألصق من أي وقت مضى للشعوب، ما سيعمق من الاستبداد وخنق الحريات، بما في ذلك عبر تخيير الشعوب بين الصحة والحرية.

التداعيات الجيوسياسية للجائحة:

كشفت الجائحة مبدئيا عن مدى هشاشة العولمة، حيث تعد سببا كبيرا في الانتشار السريع للمرض من جهة، علاوة على التسبب في تعريض الشركات والدول للصدمات بسبب الربط المباشر والكبير الحادث بين الدول والشركات، ما جعل أيا

منهما يتعرض للصدمة التي تؤثر في الآخر، وكذلك اتجاه الدول للانغلاق على نفسها للحد من انتشار المرض، والذي ربما يطول أمده لفترات طويلة، ما يعكس تقويضا لأساس العولمة القائم على جعل العالم كالقرية الواحدة على صُعد مختلفة.

ومع طريقة التعامل مع الأزمة على المستوى العالمي، أصبحت هناك اتجاهات تُنظّر لأثر الجائحة على النظام العالمي برمته، سواء من ناحية استمراريته كنظام، أو من ناحية تأثر مواقع القوى الكبرى المسيطرة عليه، وتبني تلك الاتجاهات تنظيرها على رؤيتها لواقع الأزمة من جهة، وعلى رؤيتها من خلال تداعيات لجوائح أو أزمات كبرى مشابهة تاريخيا من جهة أخرى. حيث يتخوف عدد من الخبراء الأمريكيين من تراجع الدور الأمريكي بشكل ملحوظ في ظل غياب سياسة واضحة للتعامل مع الأزمة من جهة، وفي ظل عدم إدراك ترامب لجوانب الأزمة من جهة ثانية، وكذلك لتراجع الإدارة الأمريكية عن التصدر لمساعدة دول أخرى لصالح دور صيني حالي يحاول سد هذه الفجوة، من جهة ثالثة.

وفيما يتعلق بالنظام العالمي ككل، يدرك العديد من المسؤولين السياسيين الدوليين أهمية الاستجابة الدولية القوية للأزمة، حتى تخرج "الحوكمة الدولية" قوية من الأزمة، وإلا فسيكون مصيرها الضعف.

 خاتمة

تتسارع وتيرة التداعيات المترتبة على تفشي فيروس كورونا المستجد، وبخاصة مع عدم وجود إشارة لانتهاء الجائحة على المدى القريب، بل على العكس، يتوقع زيادة تفشي الوباء عالميا في ظل غياب مستلزمات الوقاية، فضلا عن النقص الحاد في مستلزمات علاج الحالات المصابة، مع استحالة تطبيق العزل الكامل لأغلب سكان العالم. ومن أخطر التداعيات التي تثير مخاوف في العديد من البلدان حالات الغضب الشعبي التي يمكن أن تنشأ نتيجة التردي الشديد في الحالة الاقتصادية، وسوء إدارة الحكومات للأزمة، مع التغيرات الكبيرة التي قد تحدث في الخريطة الجيوسياسية العالمية، وفي النظام العالمي برمته.



الصين ورئيس منظمة الصحة العالمية
هما المسؤولان عن انتشار الوباء [1]

كتبه: برادلي أ. ثاير و ليان تشاو هان

ترجمه: أسامة خالد

أعلنت منظمة الصحة العالمية الأسبوع الماضي أخيراً أن فيروس كورونا - المنتشر من الصين بسرعة في جميع أنحاء العالم يُعد وباءً. والآن [في تاريخ كتابة المقال] ومع وجود أكثر من ١٥٠.٠٠٠ حالة إصابة مؤكدة على مستوى العالم وأكثر من ٥٧٠٠ من الوفيات، فإن السؤال المطروح هو: لماذا استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتدرك منظمة الصحة العالمية ما أدركه العديد من مسؤولي الصحة والحكومات في وقت أبكر بكثير؟

---

https://thehill.com/opinion/international/487851-china-and-the-whos-chief-hold-them-both-accountable-for-pandemic[1]

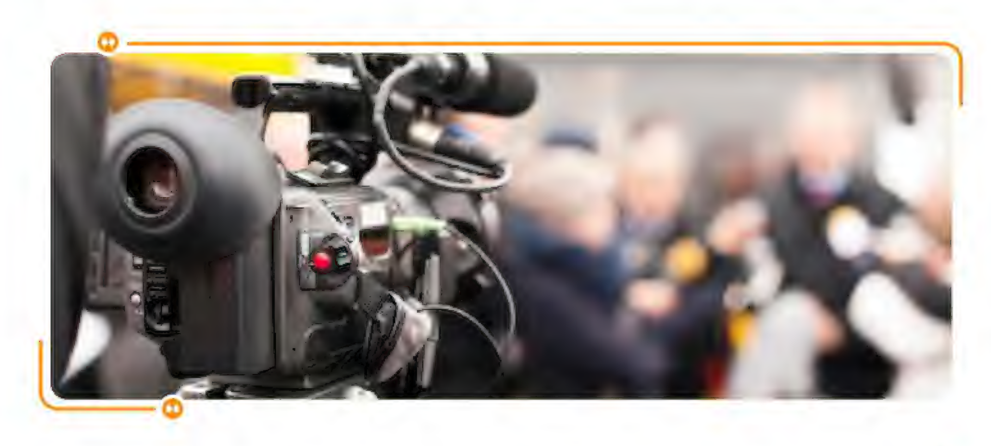
نعتقد أن المدير العام للمنظمة تيدروس أدهانوم غيبريسوس يجب أن يُحمَّل المسؤولية مع الرئيس الصيني شي جين بينغ لتهاونه في التعامل مع هذا الوباء القاتل. ويبدو أن تيدروس غضّ الطرف عما حدث في ووهان وباقي الصين، وبعد اجتماعه مع شي جين بينغ في يناير ساعد الصين على التخفيف من خطورة فيروس كورونا واستشرائه وتضييق نطاق انتشاره.

دافع تيدروس عن الصين منذ البداية على الرغم من سوء تعاملها مع المرض شديد العدوى. ومع ارتفاع عدد الإصابات وعدد القتلى، استغرقت منظمة الصحة العالمية شهوراً لإعلان تفشي فيروس كورونا على أنه وباء على الرغم من استيفائه معايير: العدوى بين الناس، وارتفاع معدلات الوفيات، وانتشاره في جميع أنحاء العالم.



عندما اتخذ الرئيس ترامب خطوة هامَّة للغاية لإيقاف فيروس كورونا عند الحدود الأمريكية من خلال فرض حظرٍ للسفر بحلول ٣١ يناير.. قال تيدروس إنه ليست هناك حاجة لحظر السفر وفرض القيود على نطاق واسع لوقف تفشي المرض ويمكن أن "يكون له تأثير يتمثل بزيادة الخوف والحرج الاجتماعي مقابل الحصول على القليل من فوائد الصحة العامة". وحذَّر من أن التدخل في خدمات النقل والتجارة يمكن أن يضر بالجهود المبذولة لمعالجة الأزمة، ونَصَحَ الدول الأخرى بعدم السير على نهج الولايات المتحدة الأمريكية.

عنـدمـا توجَّب على تيدروس التركيز على الجهود العالمية لمكافحة الوباء كان يسيّس الأزمة بدلاً من ذلك ويساعد شي جين بينغ على التنصل من مسؤوليته عن سلسلة من الأخطاء في معالجة تفشي المرض. استخدم تيدروس منبر منظمة الصحة العالمية للدفاع عن الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان التي ارتكبتها الحكومة الصينية. على سبيل المثال: منذ اكتشاف أول حالة في نوفمبر حتى عزل ووهان - بل حتى يومنا هذا - لم تَصدُق الصين بشأن أصل فيروس كورونا واستشرائه. وأما الأشخاص الذين حاولوا الكشف عن أمر الفيروس فقد اعتُقِلوا أو اختفَوا، وحُذِفت تقاريرهم ومنشوراتهم من الإنترنت. لقد ضلَّلت الصين العالم وأعطته معلومات خاطئة، وانضم تيدروس إليها في مسعاها هذا بثنائه علناً على "شفافية" الصين في مكافحة انتشار المرض.



”عندما أَمَرَ شي جين بينغ المسؤولين الصحيين الصينيين بالإسراع بتطوير الأدوية باستخدام "الأدوية العشبية الصينية التقليدية والطب الغربي"، أحدث المنشور الرسمي لمنظمة الصحة العالمية "سؤال وجواب عن فيروس كورونا" تغييراً دقيقاً. فقد وجد مستخدمو الإنترنت الصينيون تبايناً بين النسختين الصينية والإنجليزية لقائمة من التدابير التي تُعَدُّ غير فعالة ضد فيروس كورونا. وقد أدرجت النسخة الإنجليزية أربعة عناصر: التدخين، وارتداء أقنعة متعددة، وتناول المضادات الحيوية، والعلاجات العشبية التقليدية. لم يُضمّن العنصر الرابع في النسخة الصينية (اليوم حُذِف هذا العنصر من النسخة الإنجليزية أيضاً).“

تعهدت الصين مؤخراً بتقديم ٢٠ مليون دولار لمساعدة منظمة الصحة العالمية في مكافحة تفشي مرض فيروس كورونا. وشكر تيدروس شي جين بينغ على تلك المساعدة، لكننا نلاحظ روابط بين الصين وبلد تيدروس إثيوبيا (يُطلق عليها الآن "الصين الصغيرة" في شرق إفريقيا) لأنها أصبحت نقطة انطلاق بالنسبة للصين لبسط نفوذها في إفريقيا، ومفتاحاً لمبادرة "الحزام والطريق"[٢] الصينية هناك. فقد استثمرت الصين بكثافة في إثيوبيا.

انتُخِب تيدروس لمنصبه في منظمة الصحة العالمية عام ٢٠١٧ على الرغم من أنه لم يتدرب كطبيب ولم يكن لديه خبرة في الإدارة الصحية العالمية. كان تيدروس وزير الصحة السابق ووزير الخارجية في إثيوبيا، وهو عضو تنفيذي لحزب جبهة تحرير شعب تيغري السياسي الذي وصل إلى السلطة من خلال صراع عام ١٩٩١ وأُدرِج في قاعدة بيانات الإرهاب العالمية كمرتكب جرائم. وبعد أن أصبح تيدروس رئيساً لمنظمة الصحة العالمية حاول تعيين دكتاتور زيمبابوي آنذاك روبرت موغابي سفيراً للنوايا الحسنة لمنظمة الصحة العالمية. وكانت محاولته تلك مثاراً للشك عند نُقّاده.

أظهر وباء فيروس كورونا أن تيدروس لا يصلح لقيادة منظمة الصحة العالمية. وبسبب قيادته لها ربما يكون العالم قد فوّت فرصة مهمة للغاية لإيقاف هذا الوباء أو التخفيف من انتشاره. العالم الآن يصارع الإصابات المتزايدة، وإن العديد من البلدان فرضت المزيد من القيود. ينبغي محاسبة تيدروس - بصفته زعيم منظمة الصحة العالمية - لدوره في سوء إدارة الجهود للسيطرة على انتشار الفيروس.

---

[٢] استراتيجية تنمية عالمية اعتمدتها الحكومة الصينية في عام ٢٠١٣ تتضمن تطويراً للبنية التحتية واستثمارات فيما يقرب من ٧٠ دولة ومنظمة دولية في آسيا وأوروبا وأفريقيا.

يشير "الحزام" إلى طرق النقل البري والسكك الحديدية، ويسمى "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير"؛ بينما يشير "الطريق" إلى الطرق البحرية، أو طريق الحرير البحري للقرن الحادي والعشرين.



قراءة في كتاب

حتى لا يعود جهيمان

أحمد الحمدان

انتهيت من قراءة كتاب (حتى لا يعود جهيمان)، وهو في الأصل كتاب مشترك ما بين ستيفان لا كروا (صاحب كتاب: زمن الصحوة)، وتوماس هيغهامر (صاحب كتاب: قصة الجهاد في السعودية)، وموضوعه تيار أو فئة كانت على ضفاف دراستهما، فلا هم من الجهاديين ولا من الصحويين، ألا وهم جماعة جهيمان.

أتى حمد العيسى وترجم الكتاب وأضاف إليه الكثير بل غير اسمه حتى، فكان اسمه (تمرد مكة: قراءة جديدة لقصة جهيمان العتيبي)؛ فوقع في أول أخطاء الباحث وهو عدم الحيادية فقال (حتى لا يعود جهيمان)، فتخيل أن ستيفان لاكروا وتوماس هيهغامر في الأصل يعملان في وزارات الدفاع أو في الوزارات الأمنية كمستشارين، أي أنهم في الخط الأول في محاربة الإسلاميين، ومع ذلك بالكاد تجد لهم تحيزاً واضحاً في أبحاثهم ضد من يكتبون عنهم!

وعدم حيادية الباحث -الظاهرية- لم تقتصر على العنوان؛ بل تجدها في أبهى حلة داخل الكتاب في غير ما موضع؛ ولعل سبب ذلك أن الباحث العربي لا يشعر بالأمان، وهذا ما اضطر حمد العيسى أن يكتب تنبيهاً في مقدمة الكتاب، يقول فيه: (من لزوم ما لا يلزم إلا في بلاد العرب عامة والسعودية تحديداً... أن نشير إلى حقيقة بديهية وهي أن ترجمة هذه المادة وغيرها لا تعني بالضرورة الاتفاق مع محتوياتها من مصطلحات وأوصاف وتحليلات واستنتاجات وآراء ومقترحات... وباختصار فإن دور المترجم هنا هو فقط نقل المعرفة من اللغة الإنجليزية إلى العربية)، والسبب كما يبدو أن الحكومات إذا ترجمتَ عمن عارضها دون أن تذمه فقد يُفهم أنك مؤيد له! وهذا ما يجل بعض الباحثين العرب يكثرون النقد بغير موجب في ترجماتهم أو في أبحاثهم يبرئوا ذمتهم ولكي لا يُساء فهمهم!

المهم أن حمد العيسى أضاف فصلين لـجوزيف كيشيشيان ورينية فان ديمن، الفصول الأولى عمومًا، تدرس حالة الحركة من جهة موضوعية نوعاً ما، فمن خلال العمل الميداني استطاع هؤلاء الباحثون أن ينقلوا شهادات مَن كانوا في جماعة جهيمان ليحلوا الأحجية ويسدوا الفراغات (وإن كنت أظن أن شهادة الحزيمي في كتابه: "أيام مع جهيمان" قد سدت الكثير).

في الفصل الأول (التمرد المكي) ذكر المؤلفان قصة تشكل ما يسمى بالجماعة السلفية المحتسبة وتوجهاتها ومصادماتها، وبعض أفعالها هي انعكاس لازم لتوجهاتها، فمثلًا تكسير الصور يدل على تحريمهم للصور... وهكذا.

بدأت هذه الجماعة برعاية من المشايخ الرسميين إلى أن حصلت المصادمة بين الشباب والمشايخ مما أدى إلى الانشقاق سنة ١٩٧٧، أي: قبل سنتين من حادثة الحرم، وتكّون جماعة لا تخضع لتوجهات المشايخ الرسميين. فالخلاصة أن هذه الجماعة لم تكن بدايتها كنهايتها، بل تطورت مع الوقت وهذه التطورات والقفزات أحدثت انشقاقات فيها؛ وآخرها تبني المهدوية؛ فقد انشق عنهم

من كان يؤمن بأفكارهم بالجملة ثم فارقهم لهذا الموضوع وهذا في الأغلب الأعم، وهذا لا يعني أن كل من واصل معهم إلى النهاية مؤمن بهذه الفكرة، فقد حكى الحزيمي أن فيصل قد دخل مع جهيمان في حادثة الحرم من باب النخوة فقط!



ثم تكلم المؤلفان عن إرث جهيمان فقالا:

"الشخص الأكثر أهمية من خلفاء جهيمان فكرياً هو أبو محمد المقدسي... كتابات المقدسي كانت متأثرة بشدة بأيدلوجية جهيمان... ولكن المقدسي كان أكثر راديكالية وتطرفاً من جهيمان في العديد من القضايا... أبو محمد المقدسي لم يبقَ مع الجماعة السلفية المحتسبة لمدة طويلة؛ لأنه كان يجادلهم حول قضية التكفير).

"وأظن أن هذا القول فيه مبالغة وعدم دقة في ضبط الألفاظ؛ فالمقدسي يختلف منهجياً مع جهيمان في قضايا التكفير وما يتفرع عنها؛ كما أنه لم يكن قيادياً في جماعة جهيمان، فكيف يكون أبرز خلفائه؟! وهو لفظ يليق بمن مشى على منهج جهيمان حذو القذة بالقذة وكان قيادياً بارزاً في الجماعة! فهذه صفات من يليق به أن يكون خليفة لجهيمان."

فالخليفة الفكري لا يخالف من يَخلفه في قضايا جوهرية! تتعلق بالأسماء والأحكام (كقضايا التكفير وما يتفرع عنها)، والمؤلفان قد كتبا كتابهما هذا سنة ٢٠٠٦، أي أثناء كتابته لرسالة الدكتوراة وقبل صدور سلسلة (ولكن كونوا ربانيين) في سنة ٢٠٠٩ وهي سيرة ذاتية للمقدسي ذكر فيها محطاته التاريخية، ومن بينها الانضمام إلى جماعة جهيمان في الكويت.

وترى أنه تبنى الأفكار التي هو عليها ليس قبل أن يدخل الجهاد الأفغاني ويحتك مع الجهاديين؛ بل من خلال مطالعات شخصية، أدت في النهاية إلى ترك جماعة جهيمان -فرع الكويت-، والمقدسي من خلال هذه السلسلة أظهر أن تأثره بالدعوة النجدية كان أكثر من جماعة جهيمان في قضايا مثل الجيوش والبرلمانات والحكام والجهاد.

وأظن أن الخلفاء الحقيقيين لجماعة جهيمان هم إخوان بريدة، أصحاب بيت شبرا؛ وقد تكلم المؤلفان عنهم واستطردا. ويصح القول إن التأثر بجماعة جهيمان -دون المهداوية- كبداية قد يؤدي إلى سلوك المنهج الجهادي في النهاية، وهذا قول معقول. مع ضرورة التفريق بين التوجهين.

ثم وضع المحرر هامشاً وشكك في نسب المقدسي أن يكون من الروقة في عتيبة، فقال: (وهذه المرونة في تغيير الاسم قد تدعو لوضع علامة استفهام في نسبته لعتيبه)!

وهذه ليست حُجّة، ولو طردناها، لشككنا في نسب كل شخص قد غيّر أسمه! ثم أتى دور الملاحق وهي جهود مكملة لهذه الأبحاث، فكان الملحق الأول هو نقل للرواية الرسمية وهي مقابلات مطولة مع ولي العهد آنذاك فهد آل سعود، ووزير الداخلية نايف آل سعود، وهي مقابلات مهمة، ولكن يبدو أن المحرر قد وقع في خطأ فني، وهو عدم الاقتصار على الشاهد، فمثلًا مقابلة ولي العهد فهد حوت مواضيع متعددة فضلًا عن أنها مطولة جداً (المقابلات الثالثة جاوزت الـ١٠٠ صفحة) فكان ولي العهد يتكلم عن القضية الفلسطينية وتطبيع

مصر والسادات مع إسرائيل وأسعار النفط إلخ... كل هذا لا يحتاجه القارئ في موضوع الكتاب!


جهيمان العتيبي

فكان أولى من المؤلف أن يحصر المقابلة على الشاهد المطلوب (الكلام عن جهيمان) ويزيل البقية، حتى لا يُعد حشوًا.

ولكن لفت انتباهي كلام وزير الداخلية نايف بن عبد العزيز آل سعود حول نسب المهدي المزعوم فقال: (محمد بن عبد الله هذا ليس قرشيًا، بل هو من أصل تركي حتى إن الناس يطلقون على أسرته لقب التركي حتى يومنا هذا، وهو قحطاني بالحلف لأن أجداده ساكنو قحطان في بلدة واحدة واسمها "أحد-رفيدة" قرب "خميس مشيط" في الجنوب؛ ولأنهم انزعجوا من لقبه التركي؛ فقد أعطوه صفة أو اسم القحطاني نسبة إلى القبيلة التي عاشوا في كنفها).

ثم أفرد ملحقاً بعد هذه الشهادة الرسمية وهي (قصيدة منسوبة لجهيمان) ولكن المحرر عرضها مجردة هكذا، ولم يبن عن مصدره ومن قال إنها لجهيمان، أي لم يُعطِ القارئ ولا المستقصي خيطاً يقوده إلى التوثق من هذا الكلام!

الفصل الذي يليه مخصص لمن تكلم سابقاً عن جهيمان من الكتاب الغربيين، وجاءت شهادات بعضهم قصيرة، أي أن المؤلف وضع بيت الشاهد من فقرة وردت في كتب هؤلاء الغربيين، ولم يترجم فصولًا بأكملها!

أورد شهادة الباحثة الأمريكية ساندرا ماكي التي قالت في كتابها عن السعودية: (بعد شهرين من إنهاء التمرد، قال لي الشيخ عبدالعزيز التويجري، نائب رئيس الحرس الوطني المساعد، إن الأسلحة التي استعملتها جماعة جهيمان جاءت مباشرة من مخازن الحرس الوطني، ونقلت في قوافل من شاحنات الحرس الوطني!).

أما شهادة الباحث الأمريكي تروفيموف في كتابه (حصار مكة)؛ فقد أكد على هذا المصدر السابق، ونقل مواضيع متعددة من كتاب تروفيموف المذكور، منها (مقتل أمريكان سود في صفوف جماعة جهيمان) و(دور ابن باز). واللافت حسب شهادة تروفيموف أن جماعة جهيمان أرسلت مبعوثاً الى ابن باز من أجل موضوع المهدي، ومع ذلك (اختار ابن باز ألا يبلغ السلطات عن هذه المحادثة المقلقة).

واللافت أكثر هو كلام تروفيموف عن دور ضباط القوة الخاصة الذين قدموا من فرنسا إلى السعودية للإسهام في إنهاء الحصار، يقول تروفيموف: (أقامت الفرقة في الطائف واستخدم ضباط سعوديون خرائط الحرم لشرح الأزمة... اقترح الكابتن بول باريل أن يشرف على تنفيذ العملية بنفسه؛ لأن قصر الإليزيه أكد على ضرورة نجاح المهمة مهما كانت الظروف. وبعد مناقشة مع الضباط السعوديين، أعلن عن استعداده لاعتناق الإسلام حتى يدخل مكة، ولكن لم يُسمح له بذلك، وبقي في الطائف مع زميله).

لا شك أن هذا الكلام يتناقض مع شهادتهما في وثائقي قناة الجزيرة (ما خفي أعظم)، والذي ذكرا فيه دخولهم إلى الحرم نفسه!

مع العلم أن الباحث الأمريكي تروفيموف كما يقول المحرر (حصل على فيزا لدخول السعودية من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض لتنفيذ هذه الدراسة، وسمح له بمقابلة العديد من الشهود على حادثة الحرم المكي ليكتب القصة شبه الكاملة في كتابه المذكور)، والأبحاث

الانثروبولوجية في السعودية والتي تحتاج إلى تقصٍ وبحث ومقابلات لا تتم إلا بعد موافقة الحكومة السعودية، ويبدو أن حظ الأجانب أفضل من حظ العرب أو السعوديين نفسهم، كما اشتكى من ذلك المحرر في موضع آخر من الكتاب! فيقول بعدما ذكر أسماء الباحثين الغربيين الذين درسوا حادثة الحرم وأنهم (حصلوا على تسهيلات من حيث مقابلة الشهود ومراجعة الأرشيفات وغيرها من أمور، نلاحظ أنهم للأسف أجانب وصغار السن. وهذا أمر يدعو للاستغراب؛ لأن الوطن مليء بالكفاءات التي تستطيع تنفيذ مثل هذا البحث بسهولة لو حصلوا على الفرصة نفسها، وهم في رأيي أولى بل أقدر من هؤلاء الأجانب).



• • أضف إلى ذلك أن الباحث عندما يتناول مواضيع شائكة لابد أن يبرهن على عدم حياديته في كل مرة تتاح له، ولابد أن يدرج تعليقاته على متن الكتاب، بلعن والتشكيك وتقريع خصوم الحكومة! وهذا تجده في هذا الكتاب، وفي الطبعة الأخيرة سوف تجد أنه وضح توضيحاً يبدو أنه اضطر إليه أن نقل هذا المحتوى لا يعني تأييده والموافقة عليه!

فلذلك الباحث العربي العامل تحت ظل الأزمة يعيش في ظروف بائسة تجعل بحثه غير نزيه ولا حيادي ومنحاز بتكلّف.

أما الملحق الأهم هو برقيات السفارة الأمريكية، وهي برقيات مهمة جداً؛ تعطيك بالتفصيل سير الأحداث وماذا حصل اليوم وما الذي تغير عن أمس، والملفت للانتباه أن الوثائق تنص على وجود طيار أمريكي يحلق بشكل منتظم فوق الحرم المكي وبشكل شبه يومي، فيعطيهم تحديثاً للوقائع ومدى الأضرار، وكانت هذه الرسائل في غالبيتها من السفارة الأمريكية في جدة إلى وزارة الخارجية وأحياناً العكس، وهذه الوثائق تعطيك إجابة نموذجية لتساؤل قد يطرأ في ذهن القارئ الذي يقيم أحداث الأمس بعين اليوم: (لماذا لم يفعل كذا في هذا الظرف؟ ولماذا حصل كذا؟) الحقيقة أن ما كان واضحاً لنا اليوم لم يكن كذلك عند وقوع الحدث، وكثرت الشائعات وكثرت الاحتمالات فالكثير من الأمور التي وجب الأخذ بها لم يؤخذ بها؛ لأن الرؤية غير واضحة!

ومصدر هذه البرقيات يكون جهداً ذاتياً قامت به القنصلية أو وزراء أو أفراد من العائلة الحاكمة أو المرتبطون بهم.

من الملفت ما جاء في الوثائق الأمريكية أن صحيفة القبس الكويتية في وسط حومة حصار الحرم نسبت تصريحاً للخارجية الأمريكية، فعلقت السفارة على هذا: (في هذا الوقت لا ننوي أن نرفع من قدر صحيفة القبس بإعلان النفي من هنا).

أحياناً بعض الجهات تقتات لتحصل على رد منك عليها والرد عليها هو إعلاء من شأنها، فالتجاهل والنفي بطرق غير مباشرة أفضل وسيلة. هذا مما يستفاد من حادثة السفارة الأمريكية والصحيفة الكويتية.

- وفي الصحافة أيضًا يحكي السفير الأمريكي آثرتون أنه التقى بنائب الرئيس المصري آنذاك حسني مبارك، وقال له هذا الأخير إنه علم بأن صحيفة الأهرام كانت تخطط ليكون عنوانها الرئيس عن الاضطرابات في خمس مدن سعودية ولكنه منع تلك الخطة.

وهذا غيض من فيض في الدلالة على عدم استقلالية الصحافة في بلادنا، وقارن بما ذكره جورج بوش في مذكراته: قرارت مصيرية (ص٢٣٨) لما قال: (درست التايمز إمكانية نشر قصة تفضح برنامج مكافحة الإرهابيين. طلبت من ناشر الصحيفة آثر سولزبيرغر ومحررها بيل كيلر المجيء لمقابلتي في ٢٠٠٥/١٢/٥. كان طلباً نادراً، وأنا قدرّت استعدادهما للتحدث وجهاً، وجلسنا قرب موقد تدفئة تحت صورة لجورج واشنطن. قلت لهما إن الأمة لا تزال في خطر وإن صحيفتهما على وشك زيادة هذا الخطر من خلال الكشف عن برنامج مكافحة الإرهابيين بطريقة يمكن أن تنبه أعداءنا. ثم أذنت للجنرال هايدن أن يطلعهما على البرنامج. نظرت إلى سولزبيرغر وحثثته بقوة على حجب القصة لأسباب تتعلق بالأمن القومي، فقال إنه سيدرس طلبي. بعد عشر أيام اتصل بيل كيلر بستيف ليقول إن التايمز ستنشر القصة. فقد نشروا القصة على موقعهم على الإنترنت قبل اتصال كلير) أهـ.

وفي هذه الوثائق أسماء الدول العربية التي عرضت الدعم للحكومة السعودية: مثل الأردن والمغرب ودول الخليج، وموقف مصر والتي آنذاك كانت على خلاف مع الدول العربية على إثر اتفاقية كامب ديفد.

وختم المؤلف كتابه بعرض كلام بعض المعلقين عليه في بعض المواقع والصحف.

ومن أراد أن يشتري كتابه فليتريث لأنه قال في آخر صفحة من الكتاب: (ترقبوا في الطبعة الخامسة الإضافات التالية: حوارات ووثائقيات مهمة مع الأمراء عبد الله وسلطان ونايف، ومع وزير الإعلام محمد عبده يماني).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



العرب في تسع سنين (٣)

كرم الحفيان

نختم في هذا المقال ما بدأناه في الأعداد السابقة من سرد التحولات الاجتماعية العربية العميقة عقب مرور تسع سنين كاملة على ولادة ثورة العرب الكبرى في القرن الحادي والعشرين. ولا بأس بالتذكير سريعاً بالتحولات الستة الأولى قبل التطرق للتحولات الثلاثة الأخيرة بشيءٍ من التفصيل.

●● **التحول الجذري الأول**، هو ما أسميته: البداوة الاجتماعية الحديثة، وهو تحول شرائح كبيرة من المدنيين إلى حمل السلاح والاحتفاظ به واستخدامه ضد العسكر، حتى في المناطق التي عادت السيطرة فيها للأنظمة والمحتلين، وضربنا أمثلة من الحالة السورية.

● **التحول الثاني:** الخطير كان انكشاف حقيقة العدو الأول والأكبر للشعوب، وهي الجيوش العميلة كمؤسسات وشبكات وليس فقط كقيادات. مؤسسات مصنوعة خارجياً هدفها استعباد الشعوب وحماية مصالح القوى العالمية التي أسستها.

● **التحول الثالث:** عودة التكتلات المجتمعية القبائلية والمناطقية، وهي خطوة جيدة لتفكيك حالة تفرد السلطة بالأفراد ولاءً وعقاباً.

● **التحول الرابع:** نشوء جيل من اليافعين أولي بأس في المناطق التي حررت من الأنظمة القمعية وأجهزتها العسكرية والأمنية، جيل نشأ وكبر في غياب حالة الرعب من الأجهزة الأمنية، ومارس العمل الثوري المسلح منذ شبابه الباكر.

● **التحـول الخامس:** فشل نظرية تأديب الشعوب بمصير "العراق وسورية"، فقد ثارت شعوب جديدة كالجزائر والسودان ولبنان، بل والعراق نفسها جددت حراكها وثورتها وبمعطيات وأداء جديد.

● **التحول السادس:** وحدة الشعور والأمل بين الشعوب الثائرة، وهذا بانتقال الموجة الثورية وبالتناصر المادي بين الشعوب في الموجة الأولى ٢٠١١، والمؤازرة المعنوية في الموجة الثانية ٢٠١٩، ناهيك عن بروز قضيتين مركزيتين جديدتين جامعتين للأمة، لعن وبغض الثورات المضادة المتمثلة بصورة السيسي، والتمسك برسالة الثورات عبر رمزية الثورة السورية.

ننتقل الآن للتحول السابع شديد الجِدة في بنية العرب الاجتماعية الذي فاجأ الكثيرين في عام ٢٠١٩م، ألا وهو انحسار الخطاب والمشاريع الطائفية في عقر دارها، وصعود الخطاب التحرري الجامع من كافة المحتلين والأنظمة الوظيفية الوكيلة. ظهر هذا بوضوح مع الانتفاضة الكبيرة للشعب العراقي في وجه النفوذ الإيراني، والذي شمل هذه المرة المحافظات والمدن ذات الأغلبية الشيعية كالبصرة والنجف وكربلاء وغيرها.

وشهدت ساحة التحرير في العاصمة بغداد حشداً عربياً سنياً شيعياً مشتركاً موجهاً لذات الهدف للمرة الأولى منذ زمن. والعراق كانت الساحة الأكبر للتوتر الطائفي في المنطقة، ذلك الصراع الذي عملت على تغذيته وتوظيفه والاستفادة من ديمومته بل وتمدده خارج العراق، الدولتان الإقليميتان العنصريتان الطائفيتان: إيران والسعودية.



هذه اليقظة المجتمعية الجمعية امتدت لتشمل الحراك اللبناني ليصل حاضنة حزب الله اللبناني في الضاحية الجنوبية ببيروت، وليرتفع شعار"كلن يعني كلن"، أي ليرحل "نصر الله" مبعوث العناية الإيرانية في لبنان، مصحوباً ب "الحريري" مندوب المملكة السعودية في الحكومة اللبنانية.

" وتحسن الإشارة هنا إلى الانقلاب الجديد في السياسات السعودية مع سيطرة محمد بن سلمان، وبالأخص الجانب المرتبط بالتنصل من أي دعوة دينية، وما ترتب على ذلك من الحد من دعم النموذج المعرفي السلفي السعودي الرسمي القائم على أولوية عداء وحرب الشيعة كطائفة، وليس فقط إيران ومشروعها السياسي وأذرعها وميليشياتها الطائفية. "

وإذا انتقلنا للتحول الثامن الذي أحدثته ثورات الربيع العربي في تسع سنين خلت، سنجد أنفسنا أمام مراجعات وحراك وانفتاح وتلاقح فكري غير مسبوق.

فكثير من شعوب وإسلاميّ ما قبل الثورات كانوا قد وصلوا لمرحلة الجمود الفكري والانغلاق على الذات والاستقطاب المنهجي، فجاءت الثورات، وامتُحنت التوجهات والتيارات والجماعات الإسلامية وبرامجها المختلفة على أرض الواقع، وظهرت جوانب القصور والخلل والانحراف في الجميع دون استثناء.

وكشفت تجارب العمل الثوري الأخطاء القاتلة للمناهج الإصلاحية السياسية السلمية، وكذلك النماذج الجهادية الثورية بصورتها وعقليتها الحالية. وقد رأينا محاولات جدية لتشكيل تيارات وحركات جديدة تمزج بين العزيمة الثورية والروح الجهادية والوعي السياسي الرشيد في سورية ومصر وغيرهما، وما زالت المحاولات مستمرة.

ومن المتوقع، وفقاً للمعطيات السابقة، أن السنوات القليلة القادمة ستشهد ولادة حركات إجتماعية إسلامية ثورية جديدة برؤى ومرجعيات فكرية أصيلة ومختلفة وخطط عمل أكثر شمولية ونضجاً وكياسةً.

ومن وجهة نظري، آخر تحول محوري أفرزته الثورات في ذهنية المجتمعات العربية الثائرة هو: إظهار حجم وحقيقة "نضال" و"ثورية" العلمانيين "المعارضين" للأنظمة الاستبدادية العسكرية الحاكمة أو قوى الاحتلال سواءً في التجارب السلمية أو المسلحة. فقد رأى الجميع بأم عينيه (عندما يجل الخطب وتقع الواقعة) في أي ميدان يقف جل رموز وقادة الفكر العلماني والقومي واليساري والليبرالي، وإلى أي صف ينحازون ويلوذون.

ففي ميادين الجهاد والملاحم والعمل المسلح، لن تجد أي قيادة علمانية ميدانية لأي جماعة أو حركة تصارع قوى الطغيان والاحتلال. ستجد فقط مسلمين يجاهدون (بغض النظر عن جودة مرجعياتهم الفكرية وأدائهم السياسي والاجتماعي الحالي) سواءً كانوا ضمن أطر أيديولوجبة أو تنظيمية لجماعات وتيارات إسلامية معروفة، أو كقادة وأعضاء في مجموعات وحركات محلية.

أما في "الثورات" التي لم تتطور للعمل القتالي المسلح، وبطشت الجيوش المنقلبة فيها بحكومات الإسلاميين المنتخبة وأنصارها كمصر، فقد بان للشعوب نوعية "المعارضة" التي كانت تمارسها جل النخب السياسية والإعلامية والفكرية العلمانية، ومدى صحة أو جدوى التعويل على الاصطفاف معهم في أي مشروع تحرر أو نهوض حقيقي في المستقبل.



إذن فالعقد الأول للثورات العربية المعاصرة حمل مع آلامه البشرية الكثيرة الغائرة مجموعة من المتغيرات الإنسانية الهائلة، والتي سيظهر أثرها السياسي والاجتماعي في بضع سنين قادمة. تحولات جوهرية متعلقة بتكوين الأنظمة الحاكمة وبتركيبة المجتمعات العربية الثائرة.

خلاصة هذه التحولات الثورية: تفكك القوة العسكرية والأمنية والاقتصادية لمجموعة من أكثر الأنظمة العربية توحشاً ودمويةً وعمالةً وتخريباً وتفكيكاً لقوى وقيم المجتمع العربي المسلم، كالنظام السوري والعراقي والليبي واليمني، إضافةً إلى انكشاف أجندة النظام الإيراني الطائفي العنصري التوسعي، وظهور الخيانات الدينية والسياسية الكبرى للنظام الأكثر تجارةً بالدين: النظام السعودي.

وفي المقابل أعادت الثورات تشكيل العمران البشري لشرائح كبيرة من المجتمعات العربية الثائرة من خلال: كسر هيمنة الدولة على سائر مناحي حياة المواطن، واستعادة التجمعات العشائرية والمناطقية لدورها المجتمعي الفعال في ردع السلطات وتوفير الخدمات الضرورية للأفراد.

حدث هذا بعد عودة روح البداوة وفطرة حمل السلاح لشرائح واسعة من "المدنيين" للتصدي لتغول الجيوش المحلية التي انكشف للجميع أنها العدو الأول للشعوب.



أضف إلى ذلك نشأة جيل جديد من اليافعين بعيداً عن عقدة الخوف من المخابرات والأجهزة الأمنية، واكتساب الشباب الثائر المجاهد لمهارات وخبرات عسكرية احترافية بعد خوضهم لمعارك ومواجهات كثيرة وطويلة مع جيوش محلية وقوى دولية.

ناهيك عن الحراك والتلاقح الفكري الميداني غير المسبوق بين أبرز التيارات والتوجهات والشخصيات الإسلامية، وتراجع المشاريع الطائفية العبثية، وانكشاف زيف نضال "المعارضة العلمانية" وظهور وزنهم الشعبي، وسقوط أطروحة الاصطفاف الموهوم معها.



.. لا جباية لأرض الله ..

القاضي عمر البلنكوتي

الصارخ في وجه الاحتلال البريطاني

صبغة الله الهدوي

في قرية بعيدة من عاصمة كيرالا الهندية، تحديداً في مقاطعة مالابرم التي يشكل فيها المسلمون نسبة ستين في المائة، وهي من إحدى المقاطعات التي يحتل فيها المسلمون الأغلبية الساحقة مقابل الهندوس، تقع هناك منطقة "بلنكوت" التي تحمل ذكريات بطل جسور، وقاض وقور، وقف في وجه الاحتلال البريطاني وتحدى تلك الإمبراطورية الكبرى التي كانت شمسها لا تغيب.

هو البطل المسلم الذي ترك دروساً عظيمة في النضال والدفاع المقدس، بيد أنه كان قاضياً وشاعراً وعاشق للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب المقولة المشهورة التي هز بها كبرياء بريطانيا "لا جباية لأرض الله".

فكانت أول صفعة على وجه الطغاة الأشقر الذين ظنوا أن منطقة مليبار سهلة المأخذ، سريعة الانقياد، لكن رجعت ظنونهم قهقرى لوجود هذا القائد المحنك الذي جمع بين النضال والتصوف، الذي انطلق بحكمته وهمته يضرب معاقل بريطانيا الغادرة، واستطاع بشخصيته الجماهيرية النادرة جذب ألوف مؤلفة وتشكيل جبهة قوية ظلت كابوساً يراود بريطانيا ويقف حائلاً أمام أطماعها في ديار مليبار.

وبأمثال هؤلاء المجاهدين ظلت ديار مليبار تمتاز من بين الولايات الهندية الأخرى في الماضي والحاضر، إذ إنها حملت في صلبها موروث العلماء والفرسان معاً من الأسرة المخدومية التي خدمت الفقه الشافعي وكتبه المشهورة في أوساط الشافعية "فتح المعين" و"قرة العين"، وأسرة ماركار التي كانت سدنة البحر العربي تحت أمر ملك كالكوت ساموتري، وكانت لها السمعة والشهرة في طرد البرتغاليين وإقصائهم من البحر العربي، فظل مسلموها مابلا يحتلون المكانة المتألقة في السياسة الهندية حتى إنهم صمدوا في زوابع الفاشية العاصفة حديثة العهد، واتحدوا وتحدوا كل أشباح الخوف والذعر لدرجة أن خابت طموحات بي جي ب في هذه الديار التي تشهد لها الأيام بتاريخ طويل من البطولة والنضال.

ولادته ونشأته

ولد الشيخ عمر البلنكوتي عام ١١٧٧ ه في أسرة منحدرة من أصول عربية تسمى بـ"كاكاتارا" ومعروفة بالدين والأخلاق، توفيت أمه وأبوه في صغره إلا أنه اصطبر ونهل من نمير العلماء العذب، وتجول في عدة أنحاء بحثاً عن العلم والعلماء، وهو من أبرز الدعاة الذين خرجتهم مدرسة السيد العلوي المنفرمي الحضرمي

الأصل، الذي كان تولى سيادة مسلمي مليبار آنذاك والذي أعلن الجهاد ضد المحتلين، ليلبي دعوته آلاف من مابلا مليبار ويسجلوا بصمة الفداء والتضحية في الميدان، وكانت له شعبية كبيرة مما أخاف بريطانيا من انعكاساتها المبهرة في المقاومة من أجل الحرية والاستقلال؛ وكان هو الروح والقلب لكل المعارك التي حدثت في مليبار.



فتلقى القاضي عمر روح النضال من أجل المبادئ، وأثر السيد المنفرمي في تشكيل شخصيته المتمردة من أجل الحرية والانعتاق من رق العبودية، وحملته الأوضاع السياسية المصطخبة مسؤولية قاض عامل لا يتصومع في المسائل الفروعية؛ بل خاض أعنف المعارك ضد بريطانيا العظمى؛ ليصبح اسمه في صدارة قائمة المتهمين لدى المحتلين، وكان تهمته النضال لاستعادة الهوية المفقودة وإحياء التراث الإسلامي من جديد، وإفشال خطط بريطانيا لتشتيت شمل المسلمين وبث الرعب فيهم وتفريق القلوب المتحدة، وتقسيم المجتمع المليباري إلى مسلم وهندوسي ليسهل لها التحكم فيه.

" مثل هذه الظروف كانت كافية لولادة بطل جسور وقاض وقور ليتغير وجه تاريخ مليبار ويرسم من جديد. "

إنه صاحب تلك الكلمة التي بددت كل أطماع المحتلين، الذين عملوا على امتصاص دماء الفلاحين الكادحين، وسعوا في قطع الأيادي العاملة المجتهدة، رغم أن مستوى الحياة كان يتردى إلى قاع الفقر الموحش ويتدنى إلى حضيض الفاقة الكارثية.

فقال القاضي عمر البلنكوتي في وجه كبرياء المحتلين هذه الكلمة الصارخة، حتى ثارت ثائرتهم وبدت سوءاتهم، فجاءوا بأشد أنواع التعذيب من الاعتقالات العشوائية ومصادرة الأموال والممتلكات، فرغم كل هذه التضييقات غزت هذه الكلمة أسماع كبار المحتلين ليكون القاضي عمر البلنكوتي رمز النضال والمقاومة.

" أرقتهم هذه الكلمة الصادمة الصامدة حتى حاصروا ديار مليبار وجعلوها تحت الرقابة المشددة، ونصبوا نقاط التفتيش ومعسكرات، فكلما سمعوا همس المقاومة طاروا إليها ببنادقهم ودباباتهم ليقهروا أولئك الفقراء البسطاء الذين لا يملكون سوى فدان أو فدانين، حتى اختنقوا لكنهم تغلبوا على كل هذه التضييقات والحصار بإيمانهم وحماستهم وعزتهم، وضربوا لشبه قارة الهند قاطبة أمثالاً حية نابضة بالبطولة والجهاد. "

أصبح القاضي عمر مصدر إلهام للمقاومين، يبث فيهم الأمل ويحثهم على الرباط والثبات، حتى أصدرت محكمة الاحتلال أمراً باعتقاله، حتى اعتُقل تحت وقع السياط والنار، لكن فشلت خطة المحتلين إذ كانوا يحلمون ويتمنون الهدأة والطمأنينة إذا توارى القاضي عن الساحة؛ لكن أثار هذا الحكم الجائر موجة عارمة من الاحتجاج، وتجمع المسلمون حول المحكمة وأصروا على إطلاق سراح القاضي.

تخبط الاحتلال أمام هذا المحيط الهائج حتى اضطر للمفاوضة مع القاضي ليهدئ الشعب الثائر، فتقدم القاضي يهدئه ويوضح له حقيقة الأمور حتى تراجع وانسحب الجمع، فبان للاحتلال قوة هذا البطل الكامنة في قلوب الألوف الثائرة .



ثم الموقف الثاني الذي أظهر فيه هذا البطل موقفه الثابت، كان ضد الذي ظهر في لباس التصوف فانبهر به كثير من العوام جهلاً وغفلةً، حتى أقبل بعضهم يسجد له تحية وإجلالاً، فلما علم القاضي هذه الفعلة الشنيعة انبرى بفتواه التي يبين فيها حرمة السجود للخلائق، وله مواقف جريئة ضد المتصوفين الذين خرجوا من ربقة الشريعة وألهوا الناس في أساطير وخرافات.

القاضي المحب

في خضم كل هذه الحركات التي لا تدب ولا تخور كان قلبه مفعماً بحب الرسول، حتى فاضت قريحته في مدح النبي قصائد ومنظومات، ليُدعى بعد ذلك بـ"حسان مليبار"، فقد أعلن في كلماته محبته الصافية للرسول صلى الله عليه وسلم ببدائع العبارات المنمقة، وصاغها بأنماط مختلفة بلغة عربية أصيلة، ومنها ما كتبها بحروف منقوطة وأخرى غير منقوطة، إذ اتخذ في نظم المدائح النبوية طرقاً غريبة تنم عن مدى تبحره وتعمقه في اللغة العربية.

بيد أنه ولد في مجتمع صاخب يعاني الفقر ويترنح تحت نير الاحتلال البريطاني الغاشم، ويحكى عنه أنه زار المدينة المنورة في موسم الحج، فلما وصل عند الروضة فوجئ بإغلاق بابها، فأصر على فتحه حتى يدخل فيها

ويسلم على المحبوب، لكن الموظفين أبوا وحاولوا إخراجه، لكنه أبى وامتنع وجلس في سدة الروضة، وقلبه جريح، حتى فاضت عيناه بالدموع وفاضت روحه بكلمات تخاطب المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكانت الأبيات التالية:

يا أكرم الكـرما علـى أعتـابكـم — عمر الفقير المـرتجي لجنابكم
يرجو العطاء على البكاء ببابكم — والدمع من عينيه سال سجيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ما جف دمع سال من عينين — لكنه يجـري علـى الخـديـن
من حب قلبي سيد الكونين — حيا وميتا في التراب رميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

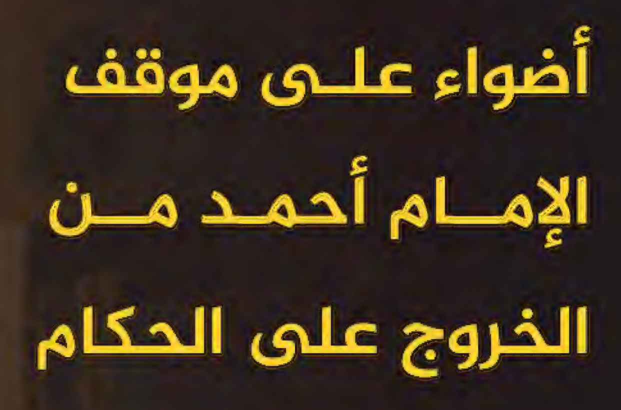
ومن قصائده في مدح الرسول القصيدة الموسومة بـ"صلى الإله" المشهورة في العالم العربي بالقصيدة العمرية، وكانت قصائده أجلى مرآة تعكس حالة المجتمع المليباري الذي بُني على العنصرية والعرقية، ليذل شعب ويعز آخر بدون أي مزايا تذكر، فغزت قصائده هذه الحالة المتدنية السخيفة التي تشبه حالة الجاهلية العربية التي تفخر بالآباء والأجداد القابعة في ظلمات النظم المتصنعة التي لا تضع للفطرة مكاناً، وأحدثت القصيدة ضجة كبيرة في أوساط الطبقات العليا الهندوسية، إذ كانت أهم القوى وراء هذه الفوارق والتمييزات اللا إنسانية، فأنشد القاضي يسفهها ويهجوها..

((أيا فاخرا بالنسب كيف التفاخر، وأصلكم من قبل "تيا وناير))، ومن الجميل في هذا الأمر، أن هذه القصيدة كانت تعرض لبعض عائلات المسلمين الأثرياء حديثة العهد بالإسلام، إذ بدأت تفتخر وتباهي بأصولها وأجدادها الكفرة كما تعودت في جاهليتها، لكن أحلامها كلها تبخرت ومطامعها كلها تحطمت بتلك الحروف الصارخة الضاربة في وجه المجتمع المؤسس على لبنات منهارة،

وأصبحت قصائده تتردد في الطبقات المطحونة لتفعم فيهم الأمل والحياة من جديد، وفي معنى آخر كانت الطبقات العليا حتى من المسلمين تميل إلى ظل الاحتلال، فصبت عليها هذه القصائد العمرية سوط سخرية مقذعة تحارب قومه المنخدع والاحتلال الخادع في آن واحد.



توفي رحمه الله عام ١٢٧٣ ه بعد أن ترك دروساً لامعة وعبراً ناصعة لشعبه الذي انسحق تحت نير الاحتلال، لقد كان صوفياً مناضلاً من أجل وطنه وشعبه، عاش بين الناس حاملاً راية النهضة والتجديد، ومؤسساً فيهم روح التضامن والألفة القومية، ومنشداً لهم قصائد الحب النبوي، ومنظومات النصيحة والوعظ.



أضواء على موقف الإمام أحمد من الخروج على الحكام

عبدالله الصعيدي

مما دَبَّر به الْمداخلةُ مذهبَهُم في تسويغ انبطاحِهِم وإِساغَةِ غُلُوِّ الطاعة، استِشْهادُهُم بما جَرَى للإمام أحمد مع خلفاء بني العبَّاس: المأمون؛ والمعتصم؛ والواثق؛ فقَدْ فَتَنوا الرعيَّةَ وحَمَلوها على كلمةِ الكفر ومَقالَةِ الخَلْقِ بالنار والحديد، ومع ذلكَ بَذَلَ الطاعَةَ وخَفَضَ الجَناحَ، وقَبَّحَ شَقَّ العصا وسلَّ السيف[1]. قال الخلال: أخبَرَنا أحمدُ بنُ محمد بن مطر؛ وذكره ابنُ يحيى؛ أن أبا طالبٍ حدَّثَهُ، أنه قال لأبي عبد اللَّه: "قد يقولون: نُقاتلهم ونَخرُجُ عليهم؟ فقال: لا، السيفُ لا نُريده، تكون فتنةٌ يُقتَلُ فيها البريء، الدُّعاء؛ عليكم به"[2].

---

(١) انظر: موسوعة الألباني في العقيدة، ط1 مركز النعمان للبحوث والدراسات، (٤/١٩٤).

(٢) السنة، ط٢ دار الراية، (٥/٩٥).

والجوابُ عن هذه الشبهة طويلُ الذُّيُول والأَكْمَام، لأنَّ فِعلَ الإمام أحمد وغيرِه من أئمة العلم يُستَدَلُّ له ولا يُستَدَلُّ به، ولعلَّ استيفاءَ جوانب دحضها يُجْمَلُ في وجهين، هما:

الوجه الأول: أنَّ إلحاقَ حُكَّام الزمان بخلفاء بني العباس ظاهِرُ الفرق بعيدُ الفَجْوة، فالمأمون؛ عبد الله بن هارون الرشيد؛ وإنْ كان الخليفةَ الذي جَذَّرَ جُذور المِحْنة وفَسَحَ نِطاقَها بالبيان والسِّنان، بَيْدَ أنه ساسَ الناسَ في غُرَّة إمامته سياسةً ممزوجةً بالدين والْمُلك، فالثُّغورُ مُحَصَّنة، والدِّينُ ظاهِرٌ، والدنيا دارَّة، والحُرُمات مرعِيَّة، وسيف الفتح راتِعٌ في كَتِفِ الشرك، وكان في خاصَّة نفسه محمودَ السيرة، أمَّاراً بالعدل، ميمونَ النَّقيبة، فقيهَ النفس، يَفيضُ عقلاً وفصاحةً وحزماً، حتى تَرجَمَ المقريزي بـقوله: "الإمامُ العالِمُ المحدِّثُ النحويُّ اللُّغَوِي"[٣]. وقال فيه الإمام الذهبي: "كان مِن رجال بني العباس حزماً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبةً وحِلماً، ومحاسنه كثيرةٌ في الجملة"[٤].

وكانَ المأمونُ يقول: "معاويةُ بِعَمْرِه، وعبدُ الملك بِحَجَّاجِه، وأنا بنفسي"[٥]! حتى طاحَ في أَوْدِية الجهمِية، فَسارَتْ سَورَتُهُ وثارَتْ ثَوْرَتُه، وشَيَّدَ دَولةَ الفلسفة والكلام، وأَتْحَفَ مُلوكَ العَجَم بغوالي العَطايا على أنْ يَصِلُوهُ بِكُتُب فلاسفتهم، وانتَخَبَ لترجَمَتِها مَهَرَة التراجِمَة. ثمَّ فَتَنَ الناسَ بمقالة خَلْقِ القرآن وغالَبَ السُّنَّةَ، وصالَ على أئمة العلم وأغلَظَ فيهم النِّكاية. وبَاعِثُهُ على كلِّ فَجَراتِهِ نُصرةُ الدِّين وهداية الرعيَّة! لا القصدُ إلى هَدْمِ الرسالة وإبْطالِ نُفوذِها، لذلك جاء في خِطابه الذي وجَّهَه إلى نائبه على بغداد؛ إسحاق بن إبراهيم الخزاعي: "...ولَعَمْرِ أمير المؤمنين، إن أكذَبَ الناس مَن كَذَبَ على الله ووَحْيِه، وتخرَّصَ الباطلَ، ولم يعرف اللهَ حقَّ معرفته، فاجمعْ مَن بحضرتك من القضاة فاقرأْ عليهم كتابَنَا، وامتحنهم فيما يقولون... وأعلِمْهُم أني غيرُ مستعينٍ في عَمَلِي، ولا واثِقٌ بمن لا يُوثَقُ بِدِينه"[٦].

---

(١) المقفى الكبير، ط٢ دار الغرب الإسلامي، (٦٤١/٤)، وانظر: الأعلام للزركلي، ط١٥ دار العلم للملايين، (١٤٢/٤) .
(٢) السير، ط٣ مؤسسة الرسالة، (٢٧٢/١٠).
(٣) تاريخ بغداد، ط1 دار الغرب الإسلامي، (٣٤/١١)، تاريخ دمشق، ط دار الفكر، (٦٠٣/٣٣).
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي، ط1 دار الغرب، (٧٤٢/٥)، طبقات الشافعية للسبكي، ط٢ دار هجر، (٩٣/٢).
(٥) تاريخ بغداد، ط1 دار الغرب الإسلامي، (٣٤/١١)، تاريخ دمشق، ط دار الفكر، (٦٠٣/٣٣).
(٦) رسائل ابن حزم، ط٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (٥١/٢).



وانظرْ وصيَّتَه لأخيه وليِّ عهدِه إذْ يقول فيها: "يا أبا إسحاق، ادْنُ مني واتعظ بما ترى، وخُذْ بسيرة أخيك في القرآن، واعملْ في الخلافة إذا طَوَّقَكَها الله تعالى عَمَل المريدِ لله، الخائفِ من عقابه، ولا تغتَرَّ بالله وتمهِيلِه، فكأنْ قد نَزَل بك الموتُ. ولا تُغْفِل أمْرَ الرعية؛ الرعيةَ الرعيةَ، العوامَّ العوامَّ، فإنَّ الْمُلْك بهم، اللهَ اللهَ فيهم وفي غيرهم من المسلمين. فلمَا اشتدَّ الأمرُ به دعا أبا إسحاق فَقَالَ: يَا أبا إسحاق، عليك عهدُ الله وميثاقُه، وذِمَّةُ رسوله صلى الله عليه وآله وَسَلَّمَ، لتقُومَنَّ بحق الله في عباده، ولَتُؤْثِرَنَّ طاعةَ الله على معصيته..."[٧].

وقال ابنُ حزم في المأمون: "ماتَ غازياً بأرض الرُّوم، وقبرُهُ بطرطوس"[٨].

لذلك فَرَّق أئمة العلم وفقهاء الملة بين المقالات الخَفِيَّة والنواقض الظاهرة، ومَيَّزوا بين التكفير بلازِم القول والتكفير بصريح القول، فاللوازم لا تُضارِع القضايا المنصوصة الصريحة. قال الكِيا الهَرَّاسي: "وَأَمَّا مَا يتَعَلَّق بِالْقَدرِ والجَبْر، وَإِثْبَات الْجِهَة ونفيها، فالمخطئ فِيهِ مَعْذُورٌ وَإِن كَانَ مُبْطلًا فِي اعْتِقَاده، بعْدَ الْمُوَافقَة فِي تَصْدِيق الرُّسُل والتزام الْمِلَّة"[٩].

---

(٧) تاريخ الطبري، ط٢ دار التراث، (٨٤٦/٨)، المنتظم، ط١ دار الكتب العلمية، (٦٣/١١)، الكامل، ط١ دار الكتاب العربي، (٨٧٥/٥).

(٨) الفصل، ط مكتبة الخانجي، (٩٣١/٣).(٢) السير، ط٣ مؤسسة الرسالة، (٣٧٢/١٠).

(٩) الرد الوافر، ط١ المكتب الإسلامي، (ص٥٢).

وتكفير القائل بخلق القرآن تكفيرُ بلازِمِ القول كما هو معلوم، لِما يَنْجُم عنه من تجريد الله جلَّ شأنه من صفة العلمِ في الأزَل، واقتضاء حُدوث العلم فيه سبحانه بعد انعدامه، وقُل مثل ذلك في صفة الكلام. والتكفير باللازم يُنافي العدلَ ما لم يلتزمه صاحبُه، لاسيما إذا كان اللازم بَعيداً غيرَ متبادَرٍ. قال ابن حزم: "مَن كَفَّر الناسَ بما تَؤُول إليه أقوالهم فخطأ، لأنه كذِبٌ على الخصم وتقويلٌ له ما لم يقل به..."[١٠].

وقـال ابـنُ نـاصـر الدين الدمشقي: "قَالَ إِمَام الْجرْح وَالتَّعْدِيل: وَالْمُعْتَمد عَلَيْهِ فِي الْمَدْح والقدح: أَبُو عبد الله مُحَمَّد ابْن الذَّهَبِيّ... ونعوذ بِاللَّه مِن الهَوى والمراء فِي الدِّين، وَأَنْ نُكَفِّر مُسلماً مُوحِّداً بِلَازِم قَوْله، وَهُوَ يَفِرُّ مِن ذَلِك اللَّازِم ويُنزِّهُ ويُعظِّم الرَّبَّ"[١١].

قال العلامة القاسمي: "فمِنْ أين يَشمَلُ عمومُ الآية[١٢] من كان مؤمنًا قانتًا محافظًا على شعائر دينه، متأوِّلاً في أبواب من العلم ما تتسع له اللغة. ولا يأباه اللسان، وهو لم يُرَدْ من لفظ الآية لا منطوقًا ولا مفهومًا، ولم تنزل في مثله، وفي الحقيقة هذا جليٌّ لا يحتاج إلى أن يُنبَّهَ على مثله، لأن هذه الفِرَقَ المتأوِّلةَ مؤمنةٌ موحِّدةٌ مطيعةٌ لله ورسوله، ليست محاربةً لله ورسوله، ولا محادَّةً لهما، ولا ساعيةً في الأرض بالفساد قتلاً ونهبًا"[١٣].

و"المعتصم" وإنْ وَرِثَ عن أخيه "المأمون" بِدعةَ الجهمية ولَوثَةَ الإكراه عليها، إلا أنه رَامَ الحقَّ وقَصَدَ اللهَ كأخيه، وقد بَانَ بياضُ أياديه في عِدَّة ملاحِم خاضَ غمارَها فَشَفى واشْتَفى. قال الإمام ابنُ حزم: "وكانت له مع ذلك فُتوحاتٌ عظيمةُ الغَناء في الإسلام، منها: قتْلُ بابك الخرمي، وقد ظهر بأذربيجان مُعلِناً

---

(١٠) يقصد آيةَ الحرابة ردًّا على من حَمَل الجهمية على محمل حدِّهم حدَّ الحرابة!

(١١) تاريخ الجهمية والمعتزلة، ط1 مؤسسة الرسالة، (ص٦٨).

(١٢) رسائل ابن حزم، ط٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (٥١/٢).

(١٣) مجموع الفتاوى، ط المجمع، (٤٢٥/٨٢)، الفتاوى الكبرى، ط1 دار الكتب العلمية، (٣٤٥/٣).

بدين المجوسية، وبقي نحوَ عشرين عاماً يَهزِم الجيوشَ السلطانية، ويَضَع سيفَهُ في الإسلام. ومنها قَتلُه المازيار المجوسي صاحب جبال طبرستان، وفتَحَ طبرستان. وكان هنالك أيضاً معلناً بدين المجوسية. ومنها قتْلُهُ الْمُحمرة بالجبل، وقد قاموا أيضاً بدين المجوسية. وهو آخِرُ خليفةٍ غَزَا أرضَ الكفر بنفسه"[١٤].



أين هذا مِن أنْفاسِ الأبالِسَة الصاخِبة التي تَطْوي سُلطانَ الشريعة بَرًّا وبَحراً، مِمَّن جَعَلوا كتابَ الله تعالى مَطْمُوراً في صُدُورِ الشيوخ، أو مَطوياً في بُطون الدَّوَاوين، أما مَعايِشُ الناس وحركةُ حياتِهم فَتُدَبِّرُها قوانين السادة ودساتير الكُبراء في حواضر الشرك! وهلْ يَقَعُ في النَّظَر اشتِباهُ أو تَماثُلُ بين مَن نَحَتَهُ وَهَجُ المحاريب؛ فَطَلَعَ بالرَّدَى على أباطِرة الرُّوم وأَذَابَ بأسَ الكافرين؛ وبيْنَ حَفْنَةٍ مِن المخانيث العُراةِ من شرائِع الدِّين وفضائلِ الرجولة؟ قال شيخ الإسلام: "ومعلومٌ بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين، أنَّ مَن سَوَّغ اتباعَ غير دين الإسلام، أو اتباعَ شريعةٍ غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كافر"[١٥]. وقد تقدَّمَ الكلامُ عن حكم اعتماد النُّظُم والقوانين المعاصرة فليُراجَع.

---

(١٤) السنة، ط٢ دار الراية، (٥٩/٥).

(١٥) انظر: تاريخ دمشق، ط دار الفكر، (١٨٢/٣٣)، تاريخ الإسلام، ط٢ دار الغرب، (٧٤٢/٥)، طبقات الشافعية للسبكي، ط٢ دار هجر، (٣٤/٢)، النعت الأكمل، ط١ دار الفكر، (ص٤٤).

الوجه الثاني: مِن غرائب الأمور أنَّ الجامية يُكَفِّرُون جهميةَ المعتزلة مِنْ مُعَطِّلة الأسماء والصفات، ثم يَسْتَدِلُّون بحال الإمام أحمد في صيانة جهمية أمريكا وأوروبا؛ مِن مُعَطِّلة الشرائع ومُبَدِّلَة الأحكام؛ عن التكفير! على أنَّ مذهب غلاة التجهم والاعتزال انسلَّ من نفوذ السلطان، إذْ هو الآمِرُ بترجمة المدوَّنات الفلسفية وحَمْلِ الناس عليها وإغرائهم بها، حتى كَمُل أمرهم واستغلَظَ واستوى على سُوقِه في فتنة خلق القرآن. فمَنْ سَبَّ النَّظَّامَ والعَلَّافَ والمريسيَّ وابنَ أبي دُؤاد، ثُمَّ خَرِسَ عن الخليفة والأمير، جَلَدَ البردَعَةَ وسيَّبَ الحمار! وهذا ليس من الكتاب ولا الميزان. كما أن المحنَة انكشفتْ عن أهل الحقِّ بقوة الرئاسة لا بنصاعة البيان، وكان البرهان فيها تابعاً للسلطان.

وقد عرَفْتَ حُجَّةَ القوم في استنادِهم إلى موقف الإمام أحمد من المأمون والمعتصم؛ وهو أمرٌ لا نُسَلِّم به؛ لأنَّ الإمام أحمد ثَبَت عنه تكفير المأمون، ومتى استَبانَ هذا فقد ظَهَر الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملون، ودُونَك الدليل؛ قال أَبُو طَالِبٍ: قلت لأبي عبد الله: "إنهم مَرُّوا بطرسوس بقبر رجلٍ، فقال أهل طرسوس: الكافر، لا رَحِمَه الله! فقال أبو عبد الله: نعم، فلا رحمه الله، هذا الذي أَسَّسَ هذا، وجاء بِهَذَا"[١٦]. والرجل من طرسوس هو المأمون، لأنه مُؤَسِّسُ الأمرِ والداعي إليه والحاملُ عليه، وهو المدفون بطرسوس وليس ابنُ أبي دؤاد ولا غيره من رُؤوس التجهُّم[١٧]، وإنما لم يَذْكُرْهُ الخلَّال باسمه لأنه وضَعَ الكتاب أيامَ دولة بني العباس، فلو سَمَّاهُ لقطعوا منه ذاك البُلعُوم، ولَصارَ وكتابُهُ أَثَراً بعد عَيْن.

وتأَمَّلْ عبارةَ الإمام أحمد هنا؛ فإنها تَرْبُو عن التكفير بمجرَّد الإقرار، لأنه لم يَكتفِ بالسكوت حتى عزَّزَ الْحُكمَ عليه بقوله: "نعم"، فزادَ الجوابُ عن مجرَّد الإقرار. كما أن مقالة الإمام أحمد؛ "نَعَم"؛ واردةٌ في مُعَيَّن، لا في نوعِ القائل ولا في جِنْسِ الْمَقُولَة، فإنما تتناول رجلاً مقبوراً بعينه.

---

(١٦) السنة، ط٢ دار الراية، (٥٩/٥).

(١٧) انظر: تاريخ دمشق، ط دار الفكر، (١٨٢/٣٣)، تاريخ الإسلام، ط2 دار الغرب، (٧٤٢/٥)، طبقات الشافعية للسبكي، ط٢ دار هجر، (٣٤/٢)، النعت الأكمل، ط1 دار الفكر، (ص٤٤).

وقد تظاهرت الروايةُ عن الإمام أحمد في الإزراءِ بسلاطين عصره وإبطالِ إمامة بعضِ مَنْ عاصَرَهم، فقال كما في رواية الأثرم في امرأةٍ لا ولي لها: "السلطانُ"[١٨]؛ فقيل له: تقول السلطان، ونحن على ما ترى اليوم؟ وذلك في وقتٍ يُمْتَحَن فيه القُضَاة. فقال: "أنا لم أَقُلْ على ما نَرَى اليوم، إنما قلت السلطان"[١٩]. قال أبو يعلى الفرَّاء: "وهذا الكلام يقتضي الذَّمَّ لهم والطعنَ عليهم، ولا يكون هذا إلا وقد قَدَحَ ذلك في وِلايتهم"[٢٠].

وقال الإمام أحمد: "أماً حُكَّامُنا اليوم؛ فلا أَرَى أن يُتَقَدَّم إلى أحدٍ منهم، ولا يُدْفَعَ إليه شيءٌ". قال الشيخ مُرْعي الكرمي: "ويتَّجِه وهو الصحيح، وكلامُهُم محمولُ على حاكمٍ أهلٍ. وهذا ينفعك هنا وفي كل موضع فاعتَمِدْهُ"[٢١].

وقال اللَّبَدي: "وهذا في زمان الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه، فما بالُكَ في هذا الزمان الذي قُضَاته لا يُوَلَّوْنَ القضاءَ إلا بدفع العَرَض الدنيوي لمن الوِلاية بيده، ولا يَحْكُمون إلا بالرِّشوة؟! فهؤلاء حُكْمُهُم غير نافذٍ بغير شَكٍّ ولا ريبٍ"[٢٢].

وقال حنبل: قال أحمد: "وأيُّ بلاءٍ كان أكبرَ مِن الذي كان أحدثَ عدُوُّ الله وعَدُوُّ الإسلام مِن إماتة السُّنة؟ يعني: الذي كان أُحدِثَ قبل المتوكل، فأحيا المتوكِّلُ السُّنَّة"[٢٣].

وكان يقول: "إنَّ أُمَراءَنا هؤلاء ليس عندهم واحدةٌ من ثِنْتَين؛ ليس عندهم تقوى أهل الإسلام، ولا أحلامُ أهلِ الجاهلية"[٢٤]!

---

(١٨) يُشيرُ هنا إلى حديث: "فَإِنْ اشْتَجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ" أخرجه أحمد في المسند، (٠٤/٣٤٢/ ح٥٠٢٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (١/٦٢٥/ح٥٠٧٢). والإمامُ أحمد هنا يُبَيِّنُ الأصلَ ولا يُخَرِّجُ الفرعَ فتنبَّه.

(١٩) الأحكام السلطانية، ط2 دار الكتب العلمية، (ص٠٢).

(٢٠) المرجع السابق، (ص٠٢)، وانظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد، ط١ دار الفلاح، (٣١/٨٢).

(٢١) غاية المنتهى في جمع الإقناع والمنتهى، ط1 مؤسسة غراس، (١/٥٥٦)، وانظر: الروض المربع، ط١،(٥/١٩٠).

(٢٢) حاشية اللبدي على نيل المآرب، ط1 دار البشائر الإسلامية، (١/٥٠٢).

(٢٣) الأحكام السلطانية، ط٢ دار الكتب العلمية، (ص٠٢)، إيضاح طرق الاستقامة، ط1 دار النوادر، (ص١٦).

(٢٤) أخبار الشيوخ وأخلاقهم، ط١ دار البشائر، (ص١٤٢).



وكان إذا ذُكِر المأمونُ، قال: "كان لا مأمون"[٢٥].

فإن قيل: إنَّ الإمام أحمد كان مُطيعاً للمعتصم، مُنادِياً له بـ "إِمْرَةِ المؤمنين"[٢٦]، وهي أَمَارَةُ صُدودِه عن تكفيرهم؟ فالجواب بأنْ يُقال: إنَّ الإمام أحمد لم يَحْمِل المعتصمَ والمأمونَ على محْملٍ واحدٍ، لأن المأمون جَمَع إلى أُبَّهَة المُلك وُفورَ الدهاء وَتَوَقُّدَ الذهن وسيلانَ القريحة، أما المعتصم فقد كان عامِّياً أُمِّياً، قال الإمام ابن حزم: "كان أُمِّياً لا يَقْرَأ ولا يَكْتُب"[٢٧].

ولماً رامَ ابنُ أبي دُؤاد إغراءَه بالإمام أحمد، هَيَّجَهُ بقوله: "إنْ تَرَكْتَه قيل: إنكَ تركْتَ مذهبَ المأمون وسَخِطتَ قولَهُ"[٢٨]. فكانَ أمِّياً مُقلِّداً لأخيه لا يحيدُ عن مهيَعِهِ قِيدَ أنمُلَة، ومِن علائِمِ ذلك أنه قال للإمام أحمد حين استَنْكَرَ عليه حبْسَهُ: "وَجدْتُ الخليفةَ قبلي قد حَبَسَك وقَيَّدَك، ولو لم يكن قد حَبَسَك على تُهمةٍ، لأمضى الحكمَ فيك، ولو لم يَخَفْكَ على الإسلام ما عَرَضَ لك"[٢٩].

لذلك استبْعَدَ شيخُ الإسلام أن يكون تكفيرُ أعيان الجهمية المرويِّ عن الإمام أحمد، وتكفيرُ عمومهم المنقول عنه؛ محمولاً على تَعَدُّد الرواية عنه في

---

(٢٥) الأحكام السلطانية للفراء، ط٢ دار الكتب العلمية، (ص٢٠)، إيضاح طرق الاستقامة، ط1 دار النوادر، (ص١٦).
(٢٦) انظر: الأحكام السلطانية للفراء، ط٢ دار الكتب العلمية، (ص٢٠).
(٢٧) رسائل ابن حزم، ط٢ المؤسسة العربية للدراسات، (٢/١٥٠).
(٢٨) مجموع الفتاوى، ط المجمع، (٢١/٤٨٩).
(٢٩) الآداب الشرعية، ط٣ مؤسسة الرسالة، (٣/٤٥٨).

ذلك، فقال: "نُقِلَ عن أحمد ما يَدُلُّ على أنه كَفَّر به قومًا مُعيَّنِين، فأماً أن يُذكَر عنه في المسألة روايتان ففيه نَظَرٌ، أو يُحمَلَ الأمرُ على التفصيل؛ فيقال: مَن كُفِّر بعينه؛ فلِقِيام الدليل على أنه وُجِدَتْ فيه شروط التكفير وانتَفَتْ موانعُه، ومن لم يُكفِّره بعينه؛ فَلِانْتِفاء ذلك في حَقِّه"[٣٠].

فإذا تقرَّر أنَّ الإمامَ أحمدَ كَفَّر المأمونَ، وكان يرى أنَّ إمامتَهُ منقوضةٌ في منظور الشرع، لم يَبْقَ لمتَمَسِّكٍ بموقف الإمام أحمد وجْهُ؛ لاسيما والبَوْنُ شاسِعُ بين خلفاء بني العباس وأئمَّة الجَبْر والكُفر.

ومما يَلزمُ بيانُه في هذا المبحث؛ أنَّ الإمام أحمد رحمه الله وطيَّبَ ثراه؛ تَهَيَّبَ الخروجَ على أئمة الكفر وأمراء الجَوْر وزادتْ حِياطَتُهُ في هذا الباب، إلا أنه مع ذلك كان شديد الحَيْدَة عن أبواب السلاطين ومجالس الأمراء، وكان يرى أنَّ الفتنَ على أعتابِهِم كَمَبَارِك الإبل! قال مهنا: "سألتُ أحمدَ عن إبراهيم بن موسى الهَرَوي، فقال: رجُلٌ وسخ. فقلت: ما قولك إنه وَسِخ؟ قال: من يَتْبَعُ الولاةَ والقُضاةَ فهو وَسِخ"[٣١]. شتَّانَ ثمَّ شَتَّان بين صنائع الإمام أحمد، وشنائع ضرائر الإصلاح، فإنْ خالَفْنا الإمامَ أحمد في خطِّ اختياراته العلمية هنا، الْتَقَينا معه في خطِّ الرجولة والمروءة. أما أحلاس البلاط ومطايا الاستبداد فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، إذْ ليسوا سوى حاشيةً على مَتْنِ أخابِثِ الحُكَّام.

فإن قيل: لماذا لم يَخْرُج الإمامُ أحمد على العباسيين، ولا أَلَّبَ الناسَ عليهم؟ قال الخلال: "قال أبو عبد الله: ابن عمر، وسعد، ومَن كَفَّ عن تلك الفتنة، أليس هو عند بعض الناس أحمد؟ ...والسيفُ لا يعجبني"[٣٢]. وقد شَرَحَ الخَلَّالُ مذهبَ الإمام أحمد في قضايا الخروج، وأَبانَهُ حتى عضَّدَهُ بقول الثوريِّ في اقتتال عليٍّ ومعاويةَ رضي الله عنهما: "لو أدركتُ علياً ما خرجتُ معه"[٣٣]!

---

(٣٠) مجموع الفتاوى، ط المجمع، (٢١/٩٨٤).
(٣١) الآداب الشرعية، ط٣ مؤسسة الرسالة، (٣/٨٥٤).
(٣٢) السنة، ط٢، دار الراية، (١/٠٤١).
(٣٣) السنة، ط٢ دار الراية، (١/٨٣١).

فالجواب: أنَّ الحجَّةَ في الرواية لا الرأي، وقد جاءَ الخبرُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إلا أن تروا كفراً بَواحاً عندكم من الله فيه برهان"[٣٤]. هذا؛ والإمام أحمد لم يُنْكِر على مَن خَرَج عليهم مِن جَرَّاء ذلك، كمحمد بن نصرٍ الخزاعيِّ، بل وجَعَلَه في مَصَافِّ الشهداء[٣٥]. فقال فيه: "رحمه الله؛ ما كان أسخاه بنفسه لله، لقد جاد بنفسه له"[٣٦]. أي لله تعالى.

وقال فيه الإمام التاج السبكي: "ذِكْر الداهية الدهياء والمصيبة الصماء... وقيامِ الأَحْمَدَيْن؛ ابْنِ حَنْبَلَ الشَّيْبَانِيّ، وَابْنِ نصرٍ الْخُزَاعِيّ رضي الله عنهما؛ مقَامَ الصِّدِّيقِين"[٣٧].

وقال فيه الحافظ ابن كثير: "مِن أهل العلم والديانة، والعملِ الصالح والاجتهادِ في الخير، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر"[٣٨].

• فهل عَزَبَ عن هؤلاء الأماجد وضاقَ عن شريف عِلمِهم، أنَّ ثَورةَ الخُزاعيِّ على الجهمية مُروقٌ من فُسطاط السُّنَّة وانفِلاتٌ مِن مَنَاط الْمِلَّة؟ أم أنَّ مذهبَ المداخلة مزحومٌ بالبلاياَ والمخاريق؟

ليس الكفيفُ الذي أمسى بلا بَصَرٍ إني أَرَى مِن ذوي الأبصار عُميانا!

---

(٣٤) تقدم تخريجه.

(٣٥) قال الحافظ ابن كثير: "فاجتمَعَ عليه جماعةٌ من أهل بغداد، والتَفَّ عليه من الألوف أعداد، وانتَصَب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان، وهما: أبو هارون السراج؛ يدعو أهل الجانب الشرقي، وآخر يقال له طالب؛ يدعو أهل الجانب الغربي، فاجتَمَع عليه من الخلائق ألوفٌ كثيرة وجماعاتٌ غزيرة، فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السِّرِّ على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروجِ على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن، ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها...". البداية والنهاية، **ط١** دار إحياء التراث، **(١٠/٣٣٤)**.

(٣٦) البداية والنهاية، **ط١** دار هجر، **(١٤/١١٣)**.

(٣٧) طبقات الشافعية، **ط٢** دار هجر، **(٢/٣٧)**. والتاج السبكي مِن أوسع من تكلَّم عن حيثيات فتنة خلق القرآن.

(٣٨) تاريخ بغداد، **ط١** دار الغرب، **(٦/٣٩٧)**، مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، **ط٢** دار هجر، **(ص٥٣٦)**.



جائحة كورونا..

كيف وجد العالم طعم الحصار؟!

أحمد قنيطة

يستمر فيروس كورونا الصغير الخفيّ في اجتياح بلاد العالم دولةً بعد دولة، ومدينةً تلو مدينة، وقرية تلو أخرى، حتى بات انتشاره يغطّي معظم جغرافيا العالم، دون تمييزٍ بين دولةٍ مسلمة وأخرى كافرة، فقيرة أو غنية، عظيمةٍ أو وضيعة، ودون تفريقٍ بين ذكرٍ أو أنثى، أبيضٍ أو أسود، صالحٍ أو طالح.

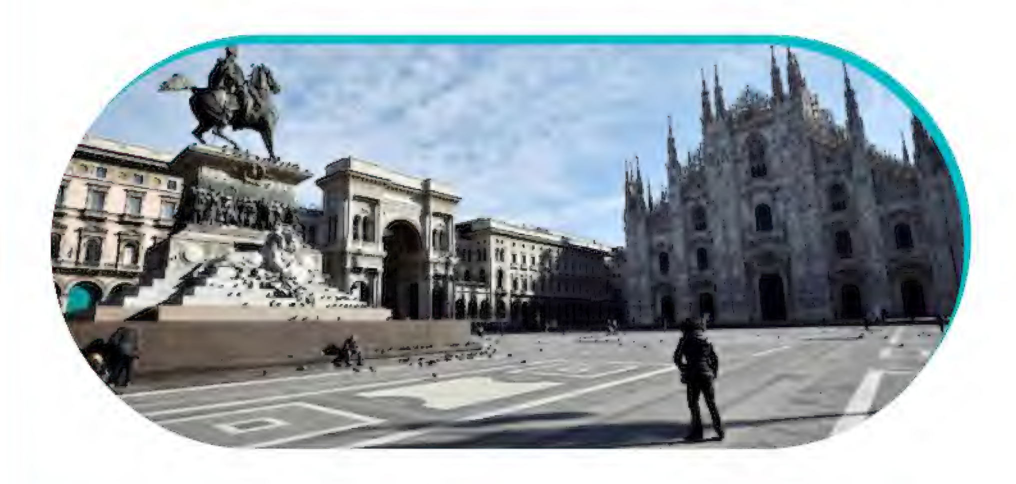
فالجميع أمامه قهره سواسية كأسنان المشط، والكل أمام جبروته خاضعُ، ومن عظيم بطشه خائف، هذا الجندي من جنود الله قد أصاب العالم بالشلل التام، وجمّد جميع مظاهر الحياة والحيوية في هذا الكوكب، الذي كان قبل أسابيع يضج بالحياة والقوة والعنفوان، ويشهدُ تسارعاً كبيراً في التقنية والتكنولوجيا، ومنافسة حثيثة في الاقتصاد والتسلُّح، حتى باتت القوى العظمى تتنافس للسيطرة على القمر والكواكب، بينما يعيش الملايين من البشر تحت الجوع والقهر والفقر والحصار!

هذا الفيروس الخطير الذي لا يعرف العلماء والخبراء حقيقته بعد، ولم يشعروا بإرهاصات نشأته وتطورّه، ولم يستطيعوا حتى هذا الوقت تفسير تداعياته ولا ظروف انتشاره، ولم يتوصّلوا إلى طرق لعلاجه؛ ما زال يطوف العالم طولاً وعرضاً، ويخطف أرواح المئات من البشر كل يوم، ويصيب الآلاف من الناس في الدول المتطورة التي ظنّ أهلها أنهم قادرون عليها؛ حتى أتاهم هذا المخلوق المجهول ليعلّمهم حقيقة ضعفهم، وعظيم انكسارهم، ويخبرهم بمدى عجزهم، وحجم وهنهم، مهما بلغت قدرتهم وقوتهم، وليجري عليهم سنة الله في الأمم الظالمة التي عتت عن أمرها ربها واستكبرت عن هدي رُسلها.

فهذه الآية البسيطة والرسالة الهيّنة على عِظمها لم تصل حد الخسف والنسف، والمسخ والإغراق والإهلاك، علّها تحيي قلوباً غلفاً وعيوناً عمياً وآذاناً صماً، فيعود الناس إلى رشدهم ويؤوب الناس إلى ربهم، فيعطي غنيهم فقيرهم، ويرحم قويهم ضعيفهم: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ".

يمضي فيروس كورونا في مهمته - التي لا يعلمُ أحد متى تنتهي إلا الله ضارباً طوقاً شديداً وحصاراً قاسياً على معظم دول العالم، حيثّ أُغلقت الحدود، وأُوصدت المعابر، وحُظر السفر، وتوقّفت التجارة، ومُنعت التجمعات، وألغيت الحفلات، وعُطّلت المدارس والجامعات، وأجبر الناس على التزام بيوتهم طوعاً أو

كرها، لا حول لهم ولا قوة إلا مناجاة الخالق العظيم، أن يكشف عنهم هذا الضر، وأن يرفع عنهم هذا البلاء، وأن يزيح عن البشرية جمعاء هذه الغمّة التي كبّلت الحياة بأغلالٍ من فولاذ.



فها هي إيطاليا تستغيث بجيرانها في أوروبا فلا يرتد إليها سوى صدى صوتها، وها هي إسبانيا تغرق في وحل الأزمة، فتمدّ يدها إلى أصدقائها فلا تعود إلا خائبة، وتلكم فرنسا وألمانيا وسويسرا والمملكة المتحدة يقفون عاجزين خائرين أمام تفشي المرض وسرعة انتشاره، وهاكم أمريكا التي أخضعت معظم دول العالم بقوتها وجبروتها وتطورها العلمي والتكنولوجي تقف صاغرة حائرة لا تستطيع حتى توفير أجهزة التنفّس الصناعي لعشرات الآلاف من الحالات المصابة، شأنها شأن معظم دول العالم.

هذا الحصار الذي يذوق اليوم العالم بأسره مرارته، ويتجرّع الناس علقمه، ويشتكي البشر من قسوته وقهره، هو نفس الحصار الذي يعيش تفاصيله القاتلة الفلسطينيون في غزة، والسوريون في حلب وإدلب، والإيغور في تركستان الشرقية، والروهينغا في أراكان، والأحوازيون في إيران وغيرها، لكنه حصارٌ أشد قسوة وأعظم وطأة، فهو حصارٌ مصحوبٌ بالصواريخ والقنابل، ومقرونٌ بالجوع والحرمان، ومعقودٌ بالقتل والتهجير، ومرتبطٌ بالسجن والتعذيب، ومُجتمِعٌ مع القهر والظلم.

فهل عرف العالم الظالم معنى أن يحاصر في غزة التي لا تتجاوز مساحتها ٣٦٥ كم مربع ٢ مليون إنسان منذ أربعة عشر عام، وهل ذاقت الشعوب الخائرة الصامتة شيئاً مما عاناه السوريون من حصارٍ خانقٍ عاشوه في مضايا والزبداني والغوطة الشرقية وغيرها، وهل عَلِم العرب والمسلمون الذين أغلقوا مساجدهم وأسواقهم خوفاً من كورونا؛ معنى أن يُغلق السوريون مساجدهم وأسواقهم خوفاً من الصواريخ والبراميل المتفجّرة؟!

هذه هي عاقبة الخذلان للشعوب المقهورة في شتى بقاع الأرض، وتلك هي مآلات التآمر على البلاد الضعيفة والفقيرة، فقوى الظلم والقهر بدلاً من أن تنفق ملياراتها على التنمية والتعليم ومحاربة الجوع والفقر في العالم؛ تستمر في حصار الدول الضعيفة ومحاربتها في أقواتها، وتمضي في سرقة ثرواتها وخيراتها، في أفريقيا وأمريكا الجنوبية وغيرها، حيث يموت كل يوم في العالم ٢٨٫٠٠٠ طفل يومياً وفق تقارير منظمة الصحة العالمية ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة، فدول العالم الثالث التي تُخفي في باطنها الذهب والمعادن والثروات تتعرض لجريمة عالمية منظّمة تقودها بعض الحكومات الغربية والعربية كأمريكا وفرنسا وبريطانيا الذين يستمرون في نهب خيرات الدول الإفريقية وسرقة ثرواتها، ثم تهريبها للخارج بينما يموت أهلها جوعاً جراء سوء التغذية، أو قهراً وقتلاً في الحروب والصراعات الداخلية التي تغذيها المخابرات العالمية، بينما تنام الشعوب في تلك الدول الظالمة ملء جفونها غافلة عن عذابات الناس وآلامها وجراحها حتى يعاجلها الله بقدره وعقابه، يقول الشيخ الأسير في سجون القهر السعودية "عبد العزيز الطريفي": "من العقوبات العاجلة عقوبة خذلان المظلومين، وكثيراً ما تنزل العقوبات بالدول ويجهلون أسبابها، يظنون أن الله لا يُعاقب إلا من باشر الظلم بنفسه!".

هذه المقالة ليست من باب الشماتة بمصاب الدول المجرمة الظالمة التي لا تفتأ تخطط وتدبّر لفرض هيمنتها والاستيلاء على كل مقدرات العالم؛ في وقت تسحق فيه دباباتها كل معاني العدالة والحرية، وتبيدُ طائراتها كل قيم الكرامة والإنسانية، ولا هي من قبيل الفرح بمآسي الشعوب التائهة الضائعة التي

انشغلت عن جرائم حكوماتها في حق الشعوب الأخرى؛ باللهث خلف جمود المادة وحيوانية الشهوة بعيداً عن روح الضمير وحيوية المشاعر، فهذا البلاء لم ينزل على دولةٍ دون دولة، أو شعبٍ دون شعب، ونحن كمسلمين لنا خصومة وثارات مع الدول الظالمة المحتلة التي قلت شعوبنا وشرّدت إخواننا ودمّرت بلادنا، لكننا أسمى وأرقى من أن نشمت بمصاب وآلام الشعوب الأخرى جراء الكوارث والأوبئة التي تجتاح بلادهم، فبيننا وبين جيوشهم الظالمة ساحاتُ للرجولة والبطولة نذيقهم فيها بأس رجالنا وصلابة أبطالنا وثبات شعوبنا حتى يكتب الله نصرنا.



●● وإنما جاءت هذه المقالة لتذكّر الناس بإنسانيتهم التي وأدتها الحضارة المتوحشّة وقتلها الرقي الزائف، وتعيدهم إلى أصل فطرتهم السليمة وضمائرهم الحية التي تدعوهم إلى الرحمة وتحضّهم على الخير، وتمنعهم من الظلم وتصرفهم عن الشر.

وأخيراً.. نسأل الله أن يكون العالم بعد هذه الأزمة القاسية خيراً مما كان عليه من قبل، ولن يكون ذلك إلا بهلاك القوى الظالمة المجرمة التي لا تقيم وزناً للإنسانية ولا الأخلاق، وأن تتبدل موازين القوى في العالم سياسياً واقتصادياً بعد هذه الجائحة، وأن يكون أهل الإسلام ذوي شأن ورأي بعد اجتماع كلمتهم وتوحيد صفوفهم، ليعود للعالم توازنه واستقراره بعيداً عن هيمنة الظالمين والمجرمين.

وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (٥٢)





محمد عمارة ...

راهب الفكر وفارس الميدان [١-٤]

د. وصفي عاشور أبو زيد

برحيل د. محمد عمارة مساء يوم ٤ رجب سنة ١٤٤١هـ/ ٢٨ فبراير/شباط ٢٠٢٠م يفقد العالم الإسلامي والفكر الإسلامي وعلماء الإسلام والمسلمون عامة قمةً من قمم الفكر الإسلامي والاجتهاد، وقامةً من قامات بيان حقائق الإسلام ودفع أباطيل خصومه، وقيمةً عظيمة من قيم التاريخ الإسلامي والأخلاق الإسلامية والحضارة الإسلامية.

لقد مثل عمارة قلعة حصينة لقضايا الإسلام المعاصرة، وحائط صد أمام تيارات التغريب والعلمنة والمركسة والإلحاد، فقد كان له الفضل - مع ثلة مباركة أمثال مشايخنا: عبد الصبور شاهين، ويوسف القرضاوي، ومحمد الغزالي، وإسماعيل سالم عبد العال، وغيرهم - في كسر شوكة العلمانية، و"سقوط الغلو العلماني"، و"انحسار تيار العلمانية في مصر"؛ ولهذا قال له الشيخ محمد الغزالي يوما: " أنت لست «عمارة»؛ أنت قلعة حصينة شامخة شديدة البأس؛ تكر منها على أعداء الإسلام وشانئيه، ولا ترضى الإياب إلا بعد أن تتركهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية".

• ترك د. عمارة للأمة المسلمة والإنسانية مكتبة مستقلة متكاملة بما خطته يداه وكته يراعه، وقد سئل عن: "ما أهم كتبك التي تعتبر أن فيها إضافة حقيقية؟"، فقال: "كتب كثيرة، مثل "معالم المنهج الإسلامي" الذي يتحدث عن معالم الوسطية الإسلامية، وهو كتاب فريد في بابه؛ وكذلك ما كتبته عن 'تيارات الفكر الإسلامي' وفوضى المصطلحات، وما كتبته عن رد الشبهات عامة، وحول القرآن والسنة، والسماحة وحقوق الإنسان ومكانة المرأة، والسنة والشيعة، والحرب الدينية والجهاد، وما كتبته في مواجهة مشاريع التغريب والغلو التغريبي والغلو العلماني من الرد على نصر أبو زيد (ت 2010م) وحسن حنفي وسعيد العشماوي".

« إن الحديث عن العلامة د. محمد عمارة - رحمه الله تعالى - يقف المرء أمامه حائرًا، عن ماذا يكتب، ومن أي نقطة يبدأ، وفي أي مجال يتحدث... لقد كان عمارة قلعة فكرية متكاملة البينان، عظيمة المعاني، مهيبة المنظر؛ حيث ولقد مثل بعطائه وإنتاجه وجهاده أحد أهم المشروعات الفكرية في عصرنا إن لم يكن أهمها على الإطلاق في ضوء معنى المشروع ومضمونه وأبعاده، التي تتشكل فيما نرى من تناول جوانب الإسلام المتعددة، وتجلية زواياه المتنوعة، من عقيدة وشريعة وحضارة؛ فكَشَفَ الفكرة من كل جوانبها، وبين الدعوة من جميع زواياها، وأقام عليها الحجج النقلية والعقلية، ودفع عنها الشبهات التي تُلقى عليها من يمين وشمال.



تعليمه وانقطاعه للعمل الفكري

من ميزات د. عمارة ومعالم تفرده التي لم تتوفر لغيره إلا نادرا أنه انقطع للعلم، وعكف على مشروعه، وقد وفقه الله لذلك وهيأ له من الظروف ما يساعده ويعزز رغبته التي قررها في وقت مبكر من حياته، وتجلى هذا الانقطاع الفكري في معالم:

أولا: نذْر والده قبل ميلاده:

بدأت معالم انقطاع د. محمد عمارة للعلم والفكر تتشكل منذ ما قبل ميلاده؛ حيث نذره والده للعلم، يقول د. عمارة: "وُلدتُ في **٢٧** رجب **١٣٥٠هـ/ ٨** ديسمبر/ كانون الأول **١٩٣١م**، في قرية اسمها "صَرَوة" مركز "قلين" في محافظة كفر الشيخ شمالي الدلتا. وُلدت لأسرة ريفية ميسورة الحال، ليست غنية وليست فقيرة تعيش من أرضها، وأنا أمزح فأقول إنني من "السادة"؛ أبي من السادة الفراعنة، وأمي من السادة آل البيت، فالأسرة تجسِّد عناق مصر مع العروبة والإسلام، أنا رابع إخوتي الذكور، والدي قبل أن أولد نذر لله تعالى إذا جاء هذا الحمل ولدًا أن يسميه محمدًا ويهبه للعلم، والعلم في مصطلح القرية في ذلك التاريخ هو العلم الديني".

ثانيا: المسيرة التعليمية:

وشاء الله تعالى أن تتهيأ الظروف لفقيدنا فيتكون تكوينا علميا قويا من خلال التحاقه بمعهد دسوق الديني، يقول: " في 1945 ذهبت إلى المعهد الديني في مدينة دسوق، وكان في مصر حينها خمسة معاهد: معهد الإسكندرية، ومعهد دسوق، ومعهد طنطا، ومعهد القاهرة، ومعهد أسيوط، والآن فيها أكثر من 8 آلاف معهد. الابتدائي في ذلك التاريخ كان مثل الإعدادي الآن، كنا ندخل أولى ابتدائي بعد حفظ القرآن وتجويده والحساب والإملاء، وكان الابتدائي في الأزهر في ذلك التاريخ يدرّس علومًا عالية، ففي الصف الرابع الابتدائي كنا ندرس 'شذور الذهب' (= كتاب مرجعي في النحو لابن هشام الأنصاري المتوفى 761هـ) الذي يدرس في أربع سنوات بكلية الآداب، ما ندرسه في الابتدائي في سنة واحدة كان يُدرس في أربع سنوات في جامعة الملك فؤاد!".

» ثم التحق بعد ذلك بكلية دار العلوم جامعة القاهرة التي رأى فيها منهجة العلم وهندسة الأفكار والالتحام بالواقع، والقدرة على الاجتهاد والتجديد، والمزاوجة بين التراث والمعاصرة والسلفية والتجديد من خلال أعلامها الكبار في الأقسام الإسلامية: التاريخ والحضارة والنظم الإسلامية، والشريعة الإسلامية، والفلسفة الإسلامية ذلك القسم الذي انتمى إليه وجايل فيه نخبةً من أميز المفكرين المعاصرين، أساتذتنا: حسن الشافعي، وعبد الحميد مدكور، ومصطفى حلمي، أبو اليزيد العجمي، محمد السيد الجليند، وآخرين.

ثالثا: مشايخه ومكتبة فيها أربعة آلاف كتاب:

وكذلك من خلال ما هيأه الله له من مشايخ تركوا بصماتهم في عقله ونفيه، منهم: الشيخ عبد الرحمن جلال، والشيخ محمد كامل الفقي، والشيخ عبد التواب الشناوي الذي توفي وترك مكتبة غنية فيها أربعة آلاف كتاب، وفيها مجلة 'الأزهر' ومجلة 'الرسالة'، وكانت فيها النسخة الأصلية لمجلة 'العروة الوثقى'، وعيون الفكر الإسلامي وكمٌّ من الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية،

واستطاع مفكرنا أن يشتري كل ما في هذه المكتبة من كتب ويقرأها جميعا.. ومن الطبيعي أن تتوسع تلك المكتبة مع الأيام، وهو ما حدث فقد كان بيته مكتبة، وأولاده ولدوا في المكتبة، وقد غطت الكتب جدران البيت!



رابعا: طبيعة عمله وسلسلة الأعمال الكاملة:

رفض د. عمارة الوظائف، وكان يراها نوعًا من الرق، كما رفض أن يذهب لبلد خليجي؛ حيث كانت نفسه تأبى أن يعمل عند "كفيل"، وبدأ حياته موظفًا في جمعية استهلاكية وكان يأخذ منها إجازات أياما كثيرة، مما أثر على وضعه المالي الذي كان يعوضه والده بإرسال مؤونة الحياة له عبر القطار؛ لينقطع لعمله الفكري في دار الكتب المصرية؛ حيث كان يقضي (18 ساعة) قراءةً وكتابة وهو في مرحلة الدراسات العليا، وهناك هيأ الله له الاطلاع على أعمال الأفغاني وعبده والكواكبي والطهطاوي وعلي مبارك وغيرها، وكرس جهده في هذه الفترة - مع دراسته العليا - لجمع هذه الأعمال التي أحيا بها فترة كانت ميتة، واستدعى بها فكرا كان غائبا، كما كان لهذه الأعمال تأثير ملحوظ في التكوين الفكري للدكتور عمارة، وكان في معاركه الفكرية التي خاضها يعتمد على كثير من مقولاتها وأدبياتها

خامسا: تأثره بالعقاد والغزالي:

بعد مرحلة التعليم الأزهري الذي تكون فيه مع تعليمه في دار العلوم، أضاف لذلك التأثر بعلمين كبيرين ومفكرين عظيمين وأديبين جليلين، هما: الأستاذ عباس العقاد، والشيخ محمد الغزالي، وكان الشيخ الشعراوي ممن عقد أملا كبيرا على جهوده في مواجهة التحديات التي يفرضها العصر على العقل المسلم.



» **يقول عن العقاد:** " كان يعجبني في العقاد عصاميته وعملقته وكبرياؤه، كنت أراه في ميدان التحرير فأكنّ له إعجابًا شديدًا. أيضا أُعجبت بطه حسين، رغم أن الجانب الأدبي عنده أكثر من الجانب الفكري، ولكن مسيرته وكفاحه شكّلا مصادر للإعجاب الفكري".

» **ويقول عن الغزالي:** "كانت هناك علاقة روحية شديدة بيني وبين الشيخ محمد الغزالي (ت ١٩٩٦م)، قبل أن أقرأ كتب الشيخ عندما أردت الدفاع عنه ضد الهجوم السلفي عليه ... ولي قصة مع الشيخ؛ فقد كنت أسمع به ولم تكن لي به صلة، وكان ثمة معركة بين المشايخ وعبد الرحمن الشرقاوي (ت ١٩٨٧م) حول كتاباته اليسارية، فألقى الشيخ الغزالي محاضرة في قَطَر عن الغزو الفكري الذي يتمدد في فضائنا، وذكر من بين الأسماء الشرقاوي ومحمد عمارة، ثم حكى الشرقاوي هذا الكلام في مقال له في صحيفة "الأهرام" صادف أن قرأت المقال

وفيه اسمي، ولكنني لم أتأثر؛ لأنني كنت أحب الغزالي من بعيد، ثم بعد أن قرأ الشيخ مجموعة مقالات لي -ولم يكن قد قرأ لي شيئًا قبلها أرسل إلي رسالة، وقال لي فيها كلامًا هزني من الأعماق. قال: قالوا لي عنك إنك تفسر الشريعة تفسيرًا ماديًا، وما كان يليق بمثلي أن يحكم على الرجال من خلال مقالات الآخرين، وإن القليل الذي قرأته لك ردني إلى الصواب في أمرك، ولقد ذهبتُ إلى الذين حدثوني عنك فقلت لهم: هذا عقاد العصر، وهذا وهذا...

في آخر لقاء بيني وبين الشيخ الغزالي في منزله؛ دخل وأحضر لي آخر كتبه 'نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم'، وكتب لي إهداء أحسست أنه يحمّلني الأمانة، كتب لي: "إلى أخي الحبيب د. عمارة داعية الإسلام وحارس تعاليمه. محمد الغزالي"، ثم سافر بعد ذلك إلى الجنادرية (في السعودية)، فتوفي ودُفن هناك في البقيع".



(في الحلقة الثانية سيكون الحديث بإذن الله عن معالم المشروع الفكري للدكتور محمد عمارة، وفي الحلقة الثالثة عن الأسرار العشرة لتميز مشروعه الفكري، وفي الحلقة الرابعة والأخيرة حول معالم فروسيته في الميادين ونورد معها مصادر الدراسة).



الإيمان الحاسم

مجدي شلش

أستاذ أصول الفقه المساعد بجامعة الأزهر

الإيمان بالله ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، فالمنافقون يقولون: آمنا بالله ولم تؤمن قلوبهم، كما أنه ليس مجرد عبادة خالية من الروح، والقلب خراب من الخير والصلاح، وليس مجرد معرفة ذهنية ثقافية، فكثير من الناس يعرفون الله بعقولهم ثم يجحدون ذلك، قال سبحانه: "... فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ". [الأنعام :٣٣].

حقيقة الإيمان تقوم على:

أولاً: إدراك ذهني عقلي تنكشف به حقائق الوجود، يصل إلى حد القطع واليقين، وطريقه الأول الوحي المعصوم، وهذا الإدراك لا بد وأن يصل إلى حد الجزم واليقين.

ثانياً: إذعان وتصديق قلبي وانقياد وخضوع إرادي، يتمثل في الطاعة والاستسلام لحُكم مَن آمن به، والرضا والتسليم بحكمه.

ثالثاً: مشاعر وجدانية وأحاسيس ملتهبة تبعث على العمل والجهاد في سبيل الله بمقتضيات ذلك الإيمان، فالإيمان الحق هو الذي يشرق نوره على جوانب النفس كلها، فيأتي إلى العقل فيقنعه، وإلى القلب فيهزه ويحرقه، وإلى الإرادة فيدفعها نحو الخير والصلاح والهُدى والتقوى، فإذا اقتنع العقل وتحرك القلب واتجهت الإرادة استجابت الجوارح واندفعت للعمل.

الإيمان بالله ليس قضية هامشية أو فرعية في حياة الإنسان، فيهتم بها أو يهملها، بل قضية أساسية ومبدئية في حياة الفرد، إذ يترتب على الإيمان بالله أن يسمى الشخص مؤمنًا، ومن خالف وأنكر يسمى كافرًا، وشتان بين حياة المؤمن والكافر.

الإيمان بالله سبحانه وتعالى يورث الأمن والأمان والطمأنينة والسلام والسكينة ورغد العيش في الدنيا، وأما الكفر فيورث القلق والاضطراب والخوف والفزع في الدنيا، كما يترتب على حقيقة الإيمان أو الكفر السعادة أو الشقاء في الآخرة، فمَن آمن بالله حق الإيمان فهو من أهل السعادة والجنة، وأما مَن كفر بالله وأنكر وجوده فالشقاء في النار خالدًا مخلدًا فيها.

جاء الإسلام والعرب أمة صغيرة العقل والقلب والحس والمشاعر تجاه ربها وخالقها، فعبدت الأصنام والأوثان، وانحرفت عن فطرتها السليمة بفعل أكابر

المجرمين فيها، ولما دبت ريح الإيمان في القلوب، وتحركت المشاعر والأبدان نحو الله سبحانه وتعالى إيمانًا به، وتصديقًا لكتابه، انتصرت على أكبر ممالك الدنيا، فحطمت رؤوس الأكاسرة، وكسرت عظام القياصرة، وفتحت المدائن باسم الله تعالى الواحد الأحد.



إنه الإيمان الذي نقل العقول والقلوب والمشاعر نحو العزة والكرامة والتمكين، وهو ذاته الذي انتصر على المرتدين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وانتصر في عين جالوت على التتار بقيادة سيف الدين قطز، وانتصر على الصليبيين في حطين بقيادة الناصر صلاح الدين، فما دخل الإيمان معركة إلا وحسمها للمؤمنين الموحدين، وإذا خلت المعارك من الإيمان انهزمت الأمة ورجعت إلى سالف عهدها من الصغار والذلة والهوان.

» المقصد الأول والأسمى للوحي العظيم هو معرفة الله حق المعرفة، وقد ورد ذكر اسم الله في القرآن الكريم ما يقرب من (٢٦٩٩) مرة، ما بين لفظ "الله - لله - تالله - بالله - أبالله"؛ فحقيقة الألوهية وبيان صفاتها وعظمتها وقدرتها جاء القرآن ببيانها أجلى بيان وأحسن تفسير، فكل المقاصد القرآنية بعد مقصد بيان عظمة الخالق وقدرته مقاصد جزئية.

المؤمن الحق: هو الذي يظهر الإيمان في قسمات وجهه، ونطق لسانه، وقوة حركته، فإذا خرج الإيمان من قلب قاسٍ أو عقل فارغ أو إحساس متبلد فلا يؤثر في الناس شيئًا، فالناس ترى الصدق في عين المؤمن قبل كلامه، وترى الحب والحنان في وجهه ولحظه قبل لفظه، فمن لم تسعدك رؤيته لم ينفعك لفظه، ومن لم ينعشك عبيره عن بُعد فلا تتكلف في شمه، وقديمًا قالوا: فاقد الشيء لا يعطيه، والإناء إذا امتلأ فاض، أما الإناء الفارغ فلا يمكن أن يفيض منه الماء.

هكذا كان الأنبياء، الناس يرون في وجوههم الإيمان والصدق قبل كلامهم، فهذا الرجل الذي دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به بمجرد رؤيته وقال: "إن هذا الوجه ليس بوجه كاذب". فالمؤمن بالله سبحانه وتعالى يحذر كل الحذر أن يخالف قولُه فعلَه، وألا يظهر أثر الإيمان في حياته وحركته، فالناس ترى الأفعال قبل الأقوال، جاء عن الحسن البصري رضي الله عنه أن رؤية وجهه يتصبر بها العباد سبعة أيام، وجاء رجل يسأل عنه، فقيل له: إذا رأيت رجلًا في المدينة لا يشبهه أحد من الناس فهو الحسن البصري.

» أساس الإيمان يتكون من:

أولًا: هداية الفطرة: فالفطرة التي فطر الله الناس عليها بمقتضاها تتحصل للإنسان علوم ضرورية، وهذا ما أجاب به سيدنا موسى عليه السلام لما سأله فرعون عن ربه، قال تعالى: "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى". [طه: ٤٩-٥٠].

فالله سبحانه خلق خلقه وغرز فيه نوعاً من الهداية تحصل بها بعض المعارف الضرورية التي يحتاجها المخلوق في أمر أكله وشرابه وصون حياته، قال تعالى: "الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى". [الأعلى: ٢-٣]

وهذا ما يسمى إيمان الفطرة، قال تعالى: " فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...". [الروم: ٣٠]

لكن هذه الهداية وحدها لا تكفي في تحقيق قضية الإيمان بالله سبحانه وتعالى، إذ هي شاملة للإنسان والحيوان وكافة المخلوقات، والمكلف بالإيمان الإنس والجن فقط، كما أن هذه الهداية وإن ثبتت للإنسان فهي قابلة للتغيير كما قال أسعد الخلق صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".



ثانياً: مع هداية الفطرة الناقصة تأتي هداية الحواس، من سمع وبصر وشم وذوق ولمس، فهي أدوات للمعرفة، قال تعالى: "وَ للّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ لسَّمْعَ وَ لْأَبْصَرَ وَ لْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [النحل: ٧٨] فلكل حاسّة من هذه الحواس وظيفة تقوم بها لتحصيل العلم والمعرفة بالأشياء، لكن هذا النوع من الهداية وإن أكانت أهميته كبيرة إلا إنه ليس كافياً للوصول إلى حقيقة الإيمان بجميع أركانه ومفرداته.

ثالثاً: تأتي بعد ذلك هداية العقل: وهي من نِعم الله الكبرى على الإنسان، إذ به يتميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فحقيقة الإنسان أنه كائن مفكر، وكثيرة هي الآيات التي خاطبت العقل، وحثته على النظر والفكر والتذكر والتعقل، حتى يصل بهذه الملكة إلى حقائق الأشياء وكنهها وسر خلقها ومدى عظمة خالقها، لكنها أيضاً بنفسها لا تستطيع الوصول إلى حقيقة الإيمان التامة الكاملة، ومعرفة مطلوب الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان وبيان سر ومقصد وجوده.

رابعاً: لذا جاءت هداية الوحي: المصدر الأساس في معرفة حقيقة الإيمان، والوصول إلى مراد الله من الخلق والتكليف، صحيح الهدايات السابقة لها أثرها في معرفة بعض الأشياء، إلا أن هذه المعرفة أمام هداية الوحي محدودة، ومن هنا تظهر مهمة الرسل وسبب إرسالهم للناس، قال تعالى: "قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي " [سبأ: ٥٠] وقال سبحانه: "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ". [الشورى: ٥٢].

هداية الوحي عرضت قضية الإيمان عرضاً واضحاً جلياً مفصلاً لا لبس فيه ولا غموض، فالوحي هو المصدر الأول لتلقي العقيدة الصحيحة السليمة البعيدة عن أي شبهة أو انحراف، وهذه الهداية الكبرى لا شك تحتاج إلى عقلٍ واعٍ، وحواس ناصعة، وفطرة سليمة حتى تؤتي أكلها وتظهر ثمرتها.

هذا الإيمان هو المصدر الأول للنصر على الشبهات التي تعكر صفوه، والشهوات التي تميته، ميدان النصر الأول لقضية الإيمان هو النفس البشرية، ثم يأتي النصر في ميدان التحرير الأوطان من سلطان، أمتنا لم تنهزم ومعها الله الذي تخضع لأحكامه، وتصون حرماته، وتعلي ذكره، وتحكم شرعه.

الأمة موعودة بالنصر والتمكين بعد إتمام عقد الإيمان، والعمل بمتطلباته، وفي مقدمتها الأخذ بالأسباب، فحقيقة الإيمان جهاد لا هوادة فيه، وثبات لا تراجع معه، وكفاح بلا كلل، وحركة بلا كسل، وسعي بلا خلل أو ملل.

الإيمان هو الروح التي تسري في كيان الأمة، فتحييها بعد موات، وتعزها بعد ذل وهوان، الإيمان هو فصيلة دم النصر والرفعة والكرامة والصمود والعزة، إيمان باعث على الفكر والعمل، والنهوض والأمل، والتقدم والنظر.



الإسلام ومنطق القوة

د. عطية عدلان

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

ليس خافياً على أحد من العالمين أنّ ما يسمى بالمجتمع الدوليّ الآن لا يحترم إلا القويّ ولا يدين إلا للقوة، ومع أنّ القوة الحقيقية هي القوة في مداها الواسع الذي يشمل الجوانب العسكرية والأمنية والاقتصادية والسياسية والعلمية؛ فإنّنا نجد أنّ القوة الخشنة التي تقوم على الأذرع الأمنية والعسكرية للسياسة الواعية المحنكةِ مقدمةٌ على كل اعتبار آخر من اعتبارات القوة.

وقد أمدتنا التجارب العديدة بالأدلة التي تبلغ حدّ التواتر والقطع على ثبوت هذه الحقيقة واستقرارها، ولقد سعد هذا الجيل بتوافر هذه الشواهد الواقعية البالغة في الإقناع حدّ الإشباع، لكنه لم يسعد - إلا في القليل النادر من النماذج - بثمرتها وفوائدها، وهذه النماذج ذاتها صارت من جمهرة الأدلة والشواهد، أولها تجربة المقاومة الفلسطينية المتمثلة في حماس والجهاد، والتي رغم كل التحديات التي ربما أعقبت بعض الهنات لا تزال صاعدة وواعدة وملهمة، وثانيها نموذج طالبان، تلك الحركة التي نسيها الخلق فترة من الزمان كانت كافية بأن تخرج بعدها على الدنيا لتجلس بنديّة شامخة على طاولة المفاوضات مع الدولة المتألهة على العالم المعاصر (أمريكا)، وثالثها: ما يسطره الأتراك الآن على أرض سوريا وشرقي المتوسط مما يعد إرهاصاً لميلاد قوة جديدة على المسرح الدوليّ.

فما موقف الإسلام من هذا المنطق الذي يجبر المتصلف العنيد على أن ينحني ويلين، ويحمل من أعطى ظهره على أن يستدير ليُقبل بوجهه، ويلزم من اعتاد التجاوز بأن يقف عند حدّه وأنفه راغم؟ أي: ما موقف الإسلام وشريعة الإسلام من منطق القوة؟

لو إنَّ إنساناً لا يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام وفتوحات المسلمين وأمجادهم العسكرية، وقرأ القرآن الكريم مجرداً من كل ما يدور حوله من تفاسير وتطبيقات وأقاويل وتأويلات، وكان لديه من العقل ما يسمح له بمطالعة الصحف اليومية فقط؛ لأيقن أنّ الأمّة التي أخرجها هذا الكتاب ملكت الكوكب الأرضيّ حتى لم تشرق الشمس يوماً على رقعة من الأصقاع نادّةٍ عن سلطانها أو شاذّةٍ عن هيمنتها.

» إنّ القرآن الكريم - ابتداء - ليس فيه آية واحدة ولا بعض آية تشتمل على نفي أو استبعاد لمبدأ استخدام القوة في الدعوة إلى هذا الدين وفي التمكين له، ومن زعم شيئاً من ذلك فدونه القرآنُ مكيُّهُ ومدنيُّهُ على السواء؛ فليشمر عن ساعديه وليأتنا بشيء يرفع عنه الاتهام بأنه عريض القفا، قد

يقول قائلهم وكم بالأقوال من فظائع أهوال إنّ القرآن المكيّ دعا في أكثر من موضع إلى الصفح والعفو والإعراض، ومع أنّ هذه الدعوة إن صحت لا تضر بأصل القضية؛ لأنّ جميع مَن حملها على نفي القتال قال بأنّها منسوخة بآيات الجهاد ولاسيما آية السيف، لكنني مُصِرٌّ على الذهاب بالحقيقة إلى ما هو أبعد وأعمق من هذا كله.



• أجل؛ لقد قال الله تعالى في آيات كثيرة: (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ) (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) وغير ذلك من التوجيهات الإلهية للمسلمين التي نزل معظمها في مكة وبعضها في المدينة، لكن لا علاقة لهذه الآيات بمسألتي السلم والحرب ولا بمبدأ استخدام القوة من حيث إقراره أو إنكاره، إنّما هي توجيهات أخلاقية وحسب، فالعفو والصفح والإعراض لا يعني قط أنّ الدعوة هذه لا اعتماد لها على القوة ولا سبيل لها إلا الوعظ والنصح والإرشاد، وليس فيها وعد للكافرين المشركين بأنّ المسلمين سيتركون لهم الأرض يعيثون فيها فساداً كما يشاءون وحسابهم على الله.

إنّ المسلم الذي يدعو إلى الله تعالى يصيبه من الناس أذى؛ فلا يصح أن يتحرك بدافع الغضب لنفسه، أو بدوافع اختلط فيها الغضب لله مع الغضب للذات؛ فينتقم ويعاقب، وإنّما عليه أن يصفح الصفح الجميل، وأن يعرض عن الجاهلين، وأن يعفو ما وسعه العفو، ولا علاقة بين ذلك وبين الجهاد إذا جاء أوانه لإماطة الفتنة التي يمارسها الطغاة ليحرموا الناس من دين الله.

بل إنّ القرآن المكيّ اشتمل على آيات فيها تلميح يقارب التصريح بأنّ القوة هي الدواء لما أصاب البشرية من أدواء، فهذه على سبيل المثال سورة العاديات وهي مكية بلا خلاف، انظر كيف بدأت وكيف بدأت معهم وإلى أي غاية أسلمتهم؟! (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) ففيها يقسم الله تعالى بالخيل التي تضبح في عدوها، وتوري الشرر باصطكاك سنابكها بالأرض، وتصبّح القوم بالغيرة، فتثير النقع والرعب معه وتتوسط الجمع لتدير رحى المعارك، فإذا سألت: لماذا؟ جاءك الجواب سريعاً بلا إبطاء ولا إمهال: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ)، فالكنود إذا لا علاج له إلا القوة.

أمّا القرآن المدنيّ فالحديث فيه عن الجهاد في غزارته يكاد يعدل الحديث عن التوحيد في القرآن المكيّ، إلا أنّ اللافت للنظر ليس كثرة الآيات وحسب، وإنّما علو النبرة وشدتها: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (التوبة ٧٣) (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) (التوبة ١٤) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة ١٢٣) (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة ٥) (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (التوبة ٢٩) (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا

بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) (محمد ٤).



هذا هو ديننا وهذا هو كتابنا، ولقد جاء تاريخ الأمة الإسلامية من لدن غزوة بدر إلى فتوح الدولة العثمانية الأخيرة في أوربا والتي بلغت حدود النمسا، جاء هذا التاريخ الزاخر بالأمجاد العسكرية والحافل بالانتصارات والفتوحات مؤكداً تلك الحقائق، وكاشفاً عن طبيعة هذا الدين وطبيعة هذه الأمّة؛ فهذا الدين ما نزل ليكون نِـحلة ينطوي عليها عرب الحجاز، بل نزل ليكون منهاجاً للبشرية كلها إلى يوم الدين، وهذه الأمة ليست أمة منشغلة بمعاشها تاركةً مصير البشرية للأهواء والفتن، بل هي أمة أُخرجت للناس، وعُلمت ولُقنت كيف تنفع الناس.

ولا خشية من وجود هذا المبدأ في الدين الإسلاميّ، بل الخشية من سوء التأويل وسوء التنزيل الذي يسيء لهذا المبدأ ويسيء للإسلام بالضرورة، لقد شهدت كثيرٌ من التجارب انحرافاتٍ أحبطت ثمرة الجهاد، بسبب الغلو أو بسبب سوء التطبيق وعدم الالتزام بأحكام الإسلام، والسنن الإلهية لا تحابي أحداً، فللقوة وللدولة وللصراع سنن وقوانين لابد من مراعاتها وإلا نكون مقصرين في واجب الإعداد بل ربما في واجب الجهاد نفسه.

هذا تبيان لأمر غاية في الوضوح والبيان، لكن لأننا صرنا نألف الأوهام ونتعايش معها تعايش الغرباء في سفر تتحفه المخاطر والأهوال؛ وجدنا من اللائق المبالغة في التبيان، والله المستعان.

من تراث الأزهر



وَلَنَبْلُوَنَّكم بشيء من الخوف...

الشيخ محمد متولي الشعراوي

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (البقرة: ١٥٥)

نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شراً، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان، ولم يقل أحد: إن الامتحانات شر، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول، فالامتحانات خير بالنسبة له، إذن فقوله الحق: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } أي سنصنع لكم امتحاناً يصفي البطولة للعقيدة الجديدة.

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات؛ وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد في سبيل الله، وذكر ثواب الشهيد، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل، فقمة الابتلاء ـ في حدود إدراكنا ـ هي فقد الحياة، وأراد الحق أن يعطي المؤمنون مناعة فيما دون الحياة، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفي بالنسبة لفقد الحياة نفسها، فمن لم يفقد حياته، فستأتي له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال، ونقص في عدد الأخوة المؤمنين، وكذلك نقص في الثمرات، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان، ويأتي التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضا مما يحب، وتلك الابتلاءات تدخل في نطاق بقاء التكليف.

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار، فالنفس لها ملكات متعددة، وعندما يصيبها الخوف، فهي تعاني من عدم الانسجام، والخوف خورٌ لا ضرورة له، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمن نفسك من أمر يُخيفك، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذي يُخيفك، أما إن استسلمت للانزعاج، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف. أما إن زاد انزعاجك عن الحد، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك، ولا بجميع تفكيرك.

إذن فالذي يخاف من الخوف؛ نقول له: أنت معين لمصدر الخوف على نفسك، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع، فلا تعش في فزعه قبل أن يأتيك، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب. إن المصيبة قد تأتي ـ مثلا ـ بعد شهر، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع؛ تكون قد قصرت مسافتها. ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

تأتي المصيبة فهو برحمته ينزل معه اللطف، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع، فأنت تعيش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أي أمر صعب، فأنت لن تعيش في المصيبة بدون اللطف.



• لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام ما زالت وليدة، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعداداً قوياً، وكان الخوف متوقعاً، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبَيِّتون، وهذا هو الابتلاء. وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف، فإن صنع ذلك يكون قد نجح في هذا الابتلاء.

ونأتي إلى الابتلاء الثاني في هذه الآية الكريمة، وهو الجوع. إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام، وهو ضروري لاستبقاء الحياة، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته. فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحكم، وحين يجوع ولا يجد طعاماً، فهو يأخذ من هذا الشحم، فإذا انتهى الشحم، فهو يأخذ من اللحم، وإذا انتهى اللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم، من أجل أن يستبقي الإنسان الحياة.

والإنسان مكون من أجهزة متعددة، وسيد هذه الأجهزة المخ، ومادامت الحياة موجودة في خلايا المخ فإن كل شيء فيك جاهز للعمل، لكن إذا ماتت هذه الخلايا، انتهى كل شيء، وذلك هو السبب في أن يقال: إن فلاناً مات ثم أعطوه دواء معينا فعادت إليه الحياة. إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة، وهي أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل، ولذلك فهناك إنسان قد يتوقف قلبه فيعالجه الأطباء بصدمة كهربية تعيد تشغيل القلب، أو يشقون الصدر لتدليك القلب. لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت. فأجهزة الجسم كلها في خدمة ذلك السيد وهو المخ.

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان ـ وهو المخ ـ في قمته، والحيوانات كذلك مخها في قمتها، أما النبات فسيده في جذوره، فالورق يذبل أولا، ثم تحف الأغصان الرفيعة، ثم الجذع، ويجف الجذر في النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء، وعندما يأتي بعض الماء إلى الجذور في الوقت المناسب فهي تعود إلى الاخضرار، وتنمو وتعود إليها الحياة، وكذلك المخ في الإنسان، فساعة ينهي الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام، فإنقاذه يأتي من إيصال الغذاء إلى المخ. ولذلك قالت المرأة العربية التي لم تكن تعرف التشريح: " نحن مرت علينا سنون، سنة أذابت الشحم، وسنة مَحَقَتْ اللحم، وسنة محت العظم ".

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسّن لنا كل رزق في الحياة؛ فإنك إن كنت جوعان صار كل طعام شهياً، والذي يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة؛ إنما هو عدم الجوع؛ فالإنسان يريد أن يُشهّي لنفسه ليأكل، لكنه لو كان جوعان لكفاه أي طعام، ولذلك قالوا: " طعام الجائع هنئ وفراش المتعب وطئ ".

فساعة يكون الإنسان متعبا فهو ينام على أرض خشنة؛ ويستغرق في النوم، وإن لم يكن الإنسان متعبا، فهو يظل يتقلب في الفراش حتى ولو كان من الديباج.

إذن فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضروري من الطعام الذي يقيم لك الحياة، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة، ولا تأكله التذاذا، وحين يقتات الإنسان

ليضمن لنفسه وقود الحياة فأي طعام يكفيه. ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.



- إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادا كافيا كاملا، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

ولذلك تجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك، فتجد الناس في تلك المجتمعات لا تتقشف، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف: أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن.

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم: "وإذا غلا شيء عليَّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا". إن أي شيء إذا غلا سعره، لا يشتريه، ويتركه، فيكون أرخص شيء لأنه لن يدفع فيه مالا ليشتريه.

» **وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال** فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التي تنتج المال ولذلك تنقص الأموال، لأن حركتهم في الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله. وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين؛ وقد يستشهد منهم عدد. وأخيراً يواجهون نقص الثمرات، والثمرات هي الغاية من كل عمل.

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقص الأنفس، وصبر على نقص الثمرات.

إذن فالمهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات؛ حتى يواجه الحياة صلباً؛ ويواجه الحياة قوياً. ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعبر عن الغاية؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: { الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }.

• والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف. والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين في بعض المعارك، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين:{ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا }[التوبة:٥١]

أي قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين: إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله.

وعندما نتأمل قوله الحق: { مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } أي أن المسألة ستكون لحسابنا، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله، ولم يقل الحق: كتب الله علينا، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله.

وأي أمر يصيب الإنسان، إما أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها، وحدثت له من غيره مثلًا، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أعدلاً أم ظلماً؟ إن كانت عدلاً فهي قد جبرت الذنب، وإن كانت ظلماً فسوف يقتص الله له ممن ظلمه. وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح.



إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعاً أن يأتي له منها خير. وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقييماً حقيقياً، "هل لي على الله حق؟ أنا مملوك الله وليس لي حق عنده، فما يجريه عليّ فهو يجريه في ملكه هو". ومن لا يعجبه ذلك فليتأب على أي مصيبة؛ ويقول لها: "لا تصيبيني"، ولن تستطيع درء أي مصيبة ـ وما دمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا. إنه يدعونا أن نقول: { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }. إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا. ولابد لنا هنا أن نأتي بمثال ـ ولله المثل الأعلى ـ هل رأيت إنساناً يفسد ملكه؟ أبداً.

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدي إلى الصلاح في ملكه، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن ملك له، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح.

{ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } أي نحن مملوكون لله، ونحن راجعون إليه، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله، إذن فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله نهاية في المرجع؛ هو سبحانه ملك القوسين: الابتداء والانتهاء، ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع؛ أي أن يقول: { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }.

وزادنا أيضاً أن نقول: "اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها". إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة تصيبك فلا بد أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها، وحتى إن نسي الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها، كأنه قالها ساعة المصيبة.

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها: حين مات أبو سلمة زوجها ـ وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعت عليه أم سلمة، فقيل لها قولي: ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وما علمكم؟ قالوا: "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها". فقالت ما قيل لها، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي خاطباً، فقيل لها: أوجد خير من أبي سلمة أم لم يوجد؟ قالت: ما كنت لأتسامى ـ أي أتوقع ـ مثل هذا الموقف".

فإذن، كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها: "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها".

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء؟. هاهو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول: { أُولَـائِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ... }.[1]

---

(١) تفسير الشعراوي، آية ١٥٥ و١٥٦ من سورة البقرة.



لا تخافوهم

د. سلمان العودة
فك الله أسره

◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇◇

الموضوع الذي أردتُ أن أحدثكم عنه، موضوع خطر في بالي وأنا أتأمل آية من كتاب الله تبارك وتعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.



فأنت ترى في هذه الآية المحكمة أن الله سبحانه وتعالى بين أن الشيطان يخوفنا من أوليائه، وأولياؤه هم اليهود والنصارى والكفار والمنافقون وأهل الضلال ؛ ثم يقول الله سبحانه وتعالى {فلا تخافوهم} وهذا نهي يقتضي التحريم، لأن نواهي ربنا تعالى مبناها على التحريم، فما نهى عنه فهو حرام، وما أمر به فهو واجب، إلا إذا وجد قرينة تصرف النهي من التحريم إلى الكراهة، أو تصرف الأمر من الوجوب إلى الاستحباب. والقرينة في الآية تدل على أن النهي للتحريم، لأن الله سبحانه وتعالى قال: {فلا تخافوهم وخافوني} فجعل خوفه سبحانه هو المطلوب (وخوف الله تعالى واجب) وجعل نقيض خوفه أن يخاف الإنسان من المخلوق. فكأن قلب الإنسان إن سكنه خوف الله زال عنه خوف المخلوق، وإن خلا من خوف الله تعالى أصبح الإنسان يخاف من كل شيء: يخاف من المخلوقات، ليس فقط من الشيطان وأوليائه بل يخاف من النجوم ويخاف من الأمطار ويخاف من العواصف ويخاف من البحار. ولذلك المشركون عبدوا آلهة شتى، عبدوا الشمس والحجر والقمر والأفلاك. لماذا عبدوها؟ لأنهم خافوها ولم يخافوا الله عز وجل. وأيضا ختم الله الآية بقوله {إن كنتم مؤمنين}. و(إن) هنا كما يقول العلماء شرطية. فجعل الله تعالى الخوف منه وعدم الخوف من المخلوقين (وخاصة الشيطان وأوليائه) جعل الله تعالى ذلك من مقتضيات الإيمان.

« واليوم تفنن أعداء الإسلام في زرع الخوف في قلوب المسلمين، فيوجد على سبيل المثال أجهزة متخصصة لنشر الرعب بين الناس، ويوجد وسائل إعلام (كتب، مجلات، أشرطة، أشرطة فيديو) مخصصة لزرع المخاوف في نفوس الناس، وهذا يسمونه عندهم الردع، الردع الذي يولد الخوف عند الإنسان كي لا يقوم بأي عمل.

يعني مثلاً، لما تذهب إلى أي مكتبة في العالم تجد كتب يسمونها (الجاسوسية)، مئات الكتب بل آلاف، بعضها قصص وبعضها أخبار، وبعضها تحاليل، وبعضها مقالات، وبعضها مقابلات، وبعضها ذكريات.. ثم تجد هناك أشياء أخرى (تمثيليات وأفلام وصور حية).

هذه الأشياء جزء غير قليل منها أكاذيب عالمية دولية، يقصد من ورائها زرع الخوف عند الناس، لأنهم يقولون من النجاح أن تمنع الإنسان من فعل الشيء قبل أن يفعله. بمعنى انهم يعتمدون على مبدأ نشر مثل هذه المخاوف عند الناس.



حتى إنك تجد كثيرا من الناس في أنحاء العالم (العالم كله، والعالم الإسلامي أيضا جزء منه)، تجد الواحد منهم تتراقص الأشباح بين عينيه (لا تنطقوا إن الجدار له أذن..!!).

« يتخيل البعض (مثلاً) أن في بيته جهاز تصنت، وان إحساسه محسوب وأن كلماته معدودة وأنه مراقب في يقظته ومنامه.

وأنا أقول: نعم هذا كله صحيح، ولكن ممن هذه المراقبة؟؟ من الله {مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، {إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}، {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ }.. فهؤلاء ملائكة، زودهم الله سبحانه وتعالى بإمكانية أن يراقبوا الإنسان في كل شيء، وعلى كل حال، وأن يكتبوا ذلك.

» والغريب أن تجد من الناس من لا يقيم وزنا للملائكة الكرام الكاتبين، ولا يقيم وزناً للرقيب العتيد الحاضر الموجود، ولا يقيم وزنا للصحائف التي يدونها الملكان، ويغفل عن ذلك كله، لكنه يقيم ألف وزن للمخلوقين.. والمخلوقين لا يعرفون ماذا في القلب ولا يعرفون ماذا في الصدر.

وكثير من الأشياء التي يعرفها عامة الناس قد لا يعرفها من يريد ويتقصد أن يعرفها.. والإنسان مركب من الضعف والنقص والغفلة، ولذلك أنت أحيانا تخدم عدوك من حيث لا تدري، حينما تعطيه هذه المكانة وتغرس في قلبك هذا الخوف له.. هذا الخوف يا أيها الاخوة: أثقل كواهل المسلمين.

(رأيت في بلاد إسلامية بعيدة وقريبة)، الواحد منهم لا يستطيع أن يصنع شيئا لدينه قط.. لماذا؟!.

لأنه مثقل بالأوهام والمخاوف.

سبحان الله... يا ليت خوفك من ربنا جل وتعالى، أو مراقبتك للملائكة عن يمينك وشمالك يكون كذلك.. إذا لأقلعت عن الذنوب والمعاصي وفارقتها سراً وعلانية.. أما هذا الخوف من المخلوقين، فيخشى أن يكون قدحاً في التوحيد، لأنه أقعدك عن العمل الصالح، وأقعدك عن الطاعات، وسيّرك إلى أن تتشبه بغير المسلمين وبالفاسقين، وتتخلى عن سيما الإيمان وتتخلى عن العلم وتتخلى عن العمل في أوساط الناس، الخوف هو الذي قصم ظهرك وأذل عنقك.

من ماذا تخاف؟!.

أين سكينة المؤمنين؟!.

الرسول عليه الصلاة والسلام كتم أمر الهجرة (كما تعرفون)، وخرج ثاني اثنين إذ هما في الغار شريدا طريدا في مكة.

يا طريدا ملأ الدنيا اسمه وغدا لحنا على كل الشفاه
وغـدت سيـرتـه أنشودة يـتـلـقـاهـا رواةً عـن رواه

» نعم أخرجوه من مكة صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله تعالى: {إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ}. يريدون رأسه صلى الله عليه وسلم، ويجعلون مئة من الإبل لمن أتى به حيا أو ميتا، بل أكثر من ذلك، فيقول لصاحبه: {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.



انظر لقوة القلب وشدة الخوف من الله، وانعدام الخوف من المخلوقين {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

ألا تلاحظون أيها الأحبة: أن الرسول عليه السلام لم يقل لأبي بكر {لا تخف إن الله معنا}، بل قال:{لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

• حتى أبو بكر لم يكن خائفا على نفسه، كان حزينا على ما آل إليه أمر هؤلاء القوم، وعلى دعوة الله عز وجل، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا عزاه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله:{لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}.

» فنحن منصورون لأننا نستمد قوتنا من الله القوي الحي القادر، أما هؤلاء فمشركون وثنيون مبتورون، ليس لهم تاريخ ولا مجد ولا حاضر ولا مستقبل، كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}. مبغضك، معاديك، محارب دينك، ودعوتك هو الأبتر الذي ليس له عَقِبٌ ولا تاريخ.. ولهذا تجد اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على كل لسان.

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه   إذ قال المؤذن في الخمس أشهد
وشق له من اسمه كي يجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

لست أقول المسلمون يعرفونه، بل حتى الكفار واليهود والنصارى وأمم الأرض كلها لا تجهل من هو محمد صلى الله عليه وسلم.. يعرفه أعداؤه وأصدقاؤه على السواء، وأشد الناس عداوة لن يستطيعوا أن ينالوا منه شيئا، ولا أن يقولوا فيه شيئاً عليه الصلاة والسلام إلا أن يكون إفكا وزورا وبهتانا.

لكن شانئه ومبغضه (أبو لهب، أبو جهل) لا أحد يعرف اسمه الذي سماه به أبوه، أو سمته به أمه، فنسخ الله تعالى ذكراهم وأبطل أمرهم، فما عاد يعرفهم ولا يفرح بقرابتهم أحد، فأحفادهم لا يمكن أن يفتخر واحد منهم بأنه ابن فلان أو عم فلان أو خال فلان... لِمَ؟!.
هذا لأن {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

• إذا هذه هي السكينة التي أنزلها الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين. أنزل السكينة عليه يوم الهجرة، وأنزل السكينة عليه يوم حنين، كما هو معروف من القصة والسورة. فأنزل الله تعالى السكينة على المؤمنين.. السكينة التي تجعلهم وهم يرون الموت الأحمر أمام عيونهم ويبصرون الرؤوس تتساقط وتتحدر في الأرض، وهذا الموقف لا يزعجهم ولا يخيفهم، في قلوبهم قوة الإيمان وشدة التوكل على الله العظيم والثقة بالله سبحانه وتعالى.

تلك المرأة (مثلاً) التي في قصة الأخدود - وحديثه في صحيح مسلم - لما أقبلت ومعها صبيها لتلقي بنفسها وصبيها في النار، وهي ترى اللحم يحترق ويشوى بالنار، وتشم رائحة الشواء النفاذة في أنفها، وترى هذا اللحم الطري الغض كيف يتحول إلى فحم أسود محترق، ثم تقدم على ذلك، أقدمت بقوة إيمانها، أقبلت في السكينة التي جعلها الله تعالى في قلبها.. وهذا هو نفسه ما يواجهه الشهيد، وهو يقتل في سبيل الله. وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا كما يجد أحدكم من ألم القرصة (على أسوأ الأحوال قرصة عقرب).



• فانظر أن الله تعالى طلب منك الخطوة الأولى، ووعدك بأن يكون هناك توفيق وتأييد منه، وأن تكون طمأنينته وسكينته سبحانه هي الثمن الذي ينـزل في قلبك، وهذا موجود عند جميع المصلحين والمؤمنين عبر التاريخ.

» **أتذكر في هذه المناسبة كيف أن ابن القيم رحمه الله يصف شيخه الإمام ابن تيمية فيقول:** " إنه كان رابط الجأش، نأتيه وقد اشتدت منا المخاوف واهتزت القلوب، فما إن نراه حتى يزول الخوف عن قلوبنا وسري عنا، فإذا تكلم بنى بنيان الإيمان واليقين والتوكل في قلوبنا ".

سبحان الله. رأينا كيف أن هناك أمورا بسيطة ويسيرة وتافهة تكبر عند بعض ضعاف القلوب حتى تصبح كالجبل العظيم، وكيف أن هناك أمورا كبيرة وعظيمة في نظر جماهير الناس تصغر عند أهل الإيمان واليقين حتى تصبح لا شيء!!.

وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتكبر في عين الصغير صغارها	وتسهل في عين العظيم العظائم

الإنسان العظيم تصغر في عينه الأمور الكبيرة، لأنه يتجاوزها. فالمؤمن (مثلاً) الذي آثر سلوك درب الشهادة في سبيل الله، ماذا يشكل بالنسبة له كون أحد آذاه أو سبه أو سخر منه، وهدده أو توعده أو ضربه، أو ضيق عليه، أو أخر رتبته أو أبعده أو أقصاه... إذا كان فعلا يريد الشهادة في سبيل الله، فما دون ذلك عنده كلها أمور سهلة يسيرة، ويتجاوزها.

• المسلمون اليوم على وجه الخصوص قتلتهم الأوهام ودقت عظامهم، فليس عند المسلم قوة الشخصية، قوة الإيمان، قوة الثقة بالله، ثم قوة الثقة بنفسه، التأكد من سلامة خطواته، الاطمئنان إلى أنه منصور، الثقة بوعد الله عز وجل.

أرأيتم لو أن إنسانا يخاف من المرض، أليس هذا مرض بحد ذاته!؟.

» بلى هو مرض، ربما ليس له دواء إلا دواء الإيمان بالله والتوكل عليه، لأنه ليس مرض عضوي يمكن أن يعالج، ووإنما هو مرض نفسي عبارة عن أوهام.

ولذلك يزعمون في الأساطير (وهذه أسطورة ولكن معناها حقيقي) أن رجلا أبصر المرض " الوباء " وهو ذاهب إلى مدينة. فقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: ذاهب إلى مدينة كذا وكذا لأقتل منها خمسة آلاف نفس.. ثم بعد ذلك جاءت

الأخبار إلى هذا الرجل، أنه مات في القرية خمسون ألفا!. وأبصر الوباء وهو راجع.. قال: من أين أقبلت؟. قال: من مدينة كذا، وقد قتلت منها خمسة آلاف. قال: بل قتلت خمسون ألفا!. قال: لا قتلت خمسة آلاف، أما الباقون فقد قتلهم الوهم!!!!

• فالوهم قاتل.



ولئن يصبح الإنسان محط نظر أو إيذاء أو مضايقة بأي لون من الألوان، ويعمل ويجاهد ويتعلم ويعلم ويفتي ويتبرع وينفق ويجاهد ويتعاون مع الناس على البر والتقوى، خير ولا شك من أن يسلم من ذلك كله وهو لا يعمل شيئا.

اليهود أدركوا هذه الثغرة المهمة في نفوس المسلمين.. فأنتم تلاحظون الآن أن هناك تضخيماً تاريخياً لدور اليهود.

كتاب بروتوكولات حكماء صهيون كلكم ربما قرأ الكتاب أو سمع به، وكثيراً ما نستشهد بهذا الكتاب ولكن، في النفس شك من هذا الكتاب، أنه قد يكون مزوراً، أو على أقل تقدير قد تكون دخلته يد التحريف، وأضافت إليه أشياء كثيرة جدا!.

« هناك مئات بل آلاف الكتب التي تتكلم عن اليهود، وأنهم أخطبوط وقوة سرية وقوة خفية في كل مكان في العالم: فالاقتصاد كله بيد اليهود والسياسة كلها بيد اليهود والإعلام كله بيد اليهود والطب كله بيد اليهود وأمريكا وراءها اليهود وروسيا وراءها اليهود!! هذا توهيم، هذا ليس بصحيح.

نعم... اليهود لهم قوة اليوم... وإن كان الأصل فيهم الضعف كما ذكر تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} فهم أذلاء ولكنهم الآن يملكون قوة في الاقتصاد ولا شك، ويملكون قوة في الإعلام ولا شك، ويملكون خبرة، ويملكون علماء في فنون شتى، ولكنهم يظلون مع ذلك ضعفاء جبناء متفرقين {لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى} نعم أفلحوا في ستر التناقضات الموجودة، ولكن بمجرد أن تواجه دولتهم أو حركتهم وضعا صعبا سوف يظهر الانحطاط والاختلاف الموجود فيهم وفي تجمعاتهم.

» والآن تلاحظون من يسمونهم بالليبيين في دولة الكيان الصهيوني، ومواقفهم من حزب العمل، والتناقضات الموجودة التي من الممكن أن تؤدي إلى انحطاط خطير يهدد هذه الدولة الوسخة بأرض المسلمين.

اليهود مستفيدون من تخويفنا بأنهم يسيطرون على كل شيء، وأنهم يعرفون كم عدد المعز الموجودة في بيوتنا (كما تروج بعض المجلات)!!. ويعرفون كم عدد الأبواب التي تشتمل عليها بيوتنا، ويعرفون كم عدد الأولاد، ويعرفون تفاصيل أحوالنا الخاصة، ويعرفون كم عدد الأشجار الموجودة!!.

هذه مبالغات وأوهام ترويجها أحيانا قد يكون بدافع طيب. بعض الناس يقصد من خلال هذا الترويج التحذير، حتى يكون الإنسان على علم (ماذا يقول، ماذا يفعل، كيف يدخل، كيف يخرج) هذه نية طيبة، ولكن كم من مريد للخير لم يبلغه!!.

لماذا نريد أن نعقد الناس، ونحولهم إلى أشباح؟!!.

الواحد لا يتحرك ولا يخطو خطوة إلا بعد أن يلتفت عدة مرات إلى اليمين وعدة مرات إلى الشمال!! ويـختمه وهو خائف وجل!! لماذا؟!.

بعض الناس أيضا قد ينشر مثل هذه المبالغات والآراء الضعيفة بهدف آخر.. وهو يقول: من أجل تعريف أهل الإسلام كيف أن اليهود عملوا وخططوا وكتبوا ورصدوا، ونحن واقفون!!



« أيضا هذا مقصد طيب، ولكن ينبغي أن لا يغرينا هذا المقصد بترويج مثل هذه الأشياء التي تحطم معنويات الشباب وتسئ إلى اعتدال التربية عندهم، وتجعلهم بدلا من أن يكونوا رجال شجعان مغاوير أشاوس أشداء أقوياء، نجعل الواحد منهم يخاف من ظله، يخاف من كل شيء، يترقب كل شيء، كل شيء عنده مصدر خطر، وفي داخله مؤامرة وفيه جهاز تصنت، وهناك شخص يراقبه، ويعد أنفاسه ويحصي حركاته!!.

سبحان الله، هذا ما وُجِدَ في التاريخ كله!!

- فرعون (مثلا) رأس الطغيان والكفر كان يقول: {إِن هَؤُلَاءِ لشرذمة قَلِيلُونَ وَإِنَّهُم لنا لغائظون وَإِنَّا لجَمِيع حاذرون}.. نعم، كان يقول ذلك لكن مع هذا كله، الله سبحانه وتعالى أبطل كيده وجعل هؤلاء المستضعفين من بني إسرائيل أئمة وجعلهم الوارثين، ومكن لهم في الأرض، وأرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

بل إن من عظيم مكر الله سبحانه وتعالى بهذا الطاغية، أن الرجل الذي قاد الحركة ضد فرعون وطغيانه (موسى عليه السلام) تربى في حجر فرعون وفي قصره، نكاية بهذا الطاغية، وليعلم الناس كلهم أن الأمر مدبر في السماء.. لا في البيت الأبيض ولا في الكونغرس ولا هنا ولا هنا، وإنما التدبيـر الحقيقي في السماء {وفي السماء رزقكم وما توعدون}. أما البشر فليسوا إلا أدوات ضعيفة، يجري الله تبارك وتعالى على أيديهم ما يشاء.

فمتى نتحرر من الأوهام والمخاوف والقلق، ومتى نتحرر بحرية وثقة بالله سبحانه وتعالى، وبطمأنينته، لنقوم بواجبنا في الدعوة إلى الله تعالى ونفهم الأمور فهما صحيحاً.. وكم من فرصة للدعوة والخير والعمل والإصلاح ضيعتها علينا المخاوف والترقيات والضغوط، وأخشى وأخاف وأتوقع، والتباكي.

بعضنا أحيانا يظن أن (فلانا) يكيد له، ولهذا عليه أن يفوت الفرصة على فلان، كما أن فلانا عنده عقل، أنت عندك عقل، ولم يجعل الله تعالى العقول مقصورة على العلمانيين ولا على المنافقين ولا على اليهود ولا على النصارى، بل أهل الإسلام هم أذكى الناس عقولاً، وأوسع الناس فهماً وأعظم الناس إدراكا، وعقولهم مزكاة بنور الوحي، بنور الإيمان، والله تعالى يسددهم ويوفقهم.. فلماذا يظنون دائماً أنهم محل الخداع، أنهم يخدعون، أنهم يضحك عليهم، أنهم يلعب عليهم، وأنهم، وأنهم.... الخ.

تحرك بوضوح وبحرية وبإيمان وبثقة واعمل، أنت لا تمارس شيئاً خطأً أو تمارس شيئاً حراما.

ألم ترَ الآن (رجال المخدرات) الذين يقومون بعمل ضد الشريعة وضد القانون وضد مصالح المجتمعات وضد الحياة الأسرية وضد الفطرة وضد كل شيء، ومع ذلك شبكاتهم تقوم بعمليات عظيمة، ويكاد يصل الذين يلاحقونهم ويحاربونهم إلى يأس أنه لا يمكن القضاء عليهم، ووضعت أقصى العقوبات إلى حد القتل، ومع ذلك هم في ازدياد وتكاثر ويسجن الواحد منهم ثم يسجن ويعاقب، ومع ذلك يبقى مصرا على عمله..

هذا يذكرنا بقصة الرجل الذي وجده الإمام أحمد قد سبقه إلى السجن، فالسجناء كلما فتح باب السجن تجمعوا وتجمهروا ينظرون من الضيف الجديد ويصفقون ويضحكون ويصفرون.. ذات مرة فتح الباب وبدلا من أن يدخل رجل شارب خمر أو تاجر أو لص، دخل رجل وقور عليه نور الإيمان ويظهر عليه البشر واليقين والتوكل.. فيتساءل السجناء: من هذا؟!.



إنه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل!

حتى فساقهم قالوا: والله له علينا حق.

« يأتيه واحد يهمس في أذنه يقول: يا أحمد، أنا سجنت من أجل عشرة دراهم عشر مرات، أسرق فأسجن ثم أخرج وأعود مرة أخرى. أنت ما عليك أنك تجلد، ولن تشعر إلا بألم السوط الأول والثاني ثم لا تشعر بشيء بعد ذلك!!.

• نعرف من أهل المبادئ الضالة من أهل الإلحاد والشيوعية ومن أهل العلمانية ومن أهل الكفر ومن أهل البعثية ومن أهل الناصرية من قتل ومنهم من سجن وطال سجنه ومنهم من أوذي ومنهم من حجب وطرد ومنهم من فقد كل إمكانياته وصلاحياته وأمواله وحقوقه، ومنهم، ومنهم. فهل يريد أهل الإسلام الذين قدوتهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يقوموا بالدعوة وأن يجاهدوا في سبيل الله وأن يتعلموا وأن يعلموا ثم لا يريد الواحد منهم أن يسمع كلمة شتم تقال له، أو تأخير رتبته، أو مضايقة له!!

ولا بد دون الشهد من إبر النحل!!..

من أراد طريق الجنة فعليه أن يعد لذلك الدرب عدته، وأبشر.. فالأمر هين.

» القضية ليس فيها صعوبات ولا مخاوف، قد تلقى من الناس ما تلقى، فلا تكن هيناً رخوا، يصدك ويثنيك كل شيء، أنت تريد الجنة، وطريقها كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات).

قد يأتيك من أخيك ومن زوجتك بعض نقد بعض اعتراض خوفاً عليك، أو طمعا في قربتك، أو حيادا، أو سوء فهم.



أيها الأحبة يجب علينا أن نتدرع بالسكينة الربانية في مواجهة مثل هذا الابتلاء، الذي هو بسيط لكنه على قدرنا.. على قدرنا لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: (يفتن الرجل على قدر إيمانه).

فلأن إيماننا ضعيف نبتلى بأشياء يسيرة جدا من هذا القبيل، فعلينا أن نتدرع بالإيمان في مواجهة ذلك ونعرف أنه كلما زاد إيمان العبد قد يلقى في سبيل ذلك ابتلاء وفتنة. وعليه أن يدرك أنه يجد لذة في هذا الابتلاء وسرورا وسعادة وطمأنينة لا يجدها غيره.

وأنا أتذكر أيها الاخوة قبل عشرين سنة أو أكثر من ذلك يوم كنا طلابا في المدارس المتوسطة والثانوية، كان يأتينا إخوان من مصر - بالذات - ومن بعض البلاد، وكان هناك أذى لأهل الإسلام، وخاصة الإخوان المسلمين في ذلك الوقت واجهوا أذى وسجنوا وقتل من قتل، فكان الواحد منهم يفتخر أنه سجن!!



مع أن بعض الذين وفدوا قد لا يكونوا لقوا أذى ولا يكونوا من الذين تعرضوا لهذا، فتجد أن بعضهم يتشبع بما لم يعطَ، فإذا أراد أن ينال المنـزلة عند الناس، سواء طلاب في الفصول أو حتى أحيانا في مقابلة صحفية في جريدة أو في إذاعة، قال: أنا سجنت أربع سنوات أو خمس سنوات، حتى ولو كان كذاباً، لأنه يرى أن هذا مدح، وأن هذه محمدة يريد أن ينال بها عند الناس مكانة.

كثير من الذين لاقوا ذلك لا يتحدثون عنه، وكثير يؤثرون أن لا يتكلموا لأنهم يرون أنه شيء بذلوه في سبيل الله ولا يريدون أن يفسدوا شيئا من نياتهم في الكلام عنه، فالمقصود أن الناس لا يرون في ذلك من بأس بل يرونه محمدة يتشبعون بها.

فإذا لم يكن للواحد منهم تاريخ من هذا القبيل صنع تاريخا واختلقه!!.

أسأل الله تعالى أن ينصر الإسلام وأهله، وأن يذل الشرك وأهله، وأن يجعلني وإياكم من أنصار دينه إنه على كل شيء قدير..

ملف : أوراق أفغانية..التاريخ السري للحرب

عالقون بلا استراتيجية (ج٢)

كان لدى بوش وأوباما خُطط على طرفي نقيض لكسب الحرب وقد فشلت كلها

تحقيق حصري لصحيفة واشنطن بوست[١]
ترجمه لمجلة كلمة حق: حامد عبد العظيم

ما يُدار في الغرف المغلقة

"لا يجب أن تفوز، بل عليك فقط ألّا تخسر".
(عضو سابق بمجلس الأمن الوطني متحدثاً لمقابلات الدروس المستفادة مبيناً كيف غطى التدخل في العراق على الحرب في أفغانستان)

نهايات عام ٢٠٠٢، أصبحت أفغانستان غير مهمة بالنسبة إلى إدارة بوش، التي كانت تجهز لغزو أكبر للعراق.

---

[١] كاتب الاستقصاء هو الصحفي بواشنطن بوست: كريج ويتلوك. والاستقصاء منشور بتاريخ ٩-١٢-٢٠١٩. رابط الاستقصاء.



حتى رامسفيلد قد ذُهل من حجم تغافل بوش عن أفغانستان، وذلك في ٢١ أكتوبر بعد قضاء عدة ساعات بالبيت الأبيض في اجتماع حول العراق، استناداً إلى مذكرة غير منشورة كتبها وزير الدفاع لاحقاً ذلك اليوم.

قبل الساعة الثالثة مساءً انفرد رامسفيلد بالقائد العام لبضعة دقائق، فسأل رامسفيلد بوش إذا كان يريد ترتيب لقاء مع الجنرال تومي فرانكس، قائد القيادة المركزية الأمريكية، والفريق دان ماكنيل، الذي كان يشغل منصب قائد القوات الأمريكية في أفغانستان خلال الأشهر الستة الماضية؟

"كان بوش محتاراً". كتب ذلك رامسفيلد في المذكرة وأضاف: "سأل الرئيس بوش: من هو الجنرال ماكنيل؟ قلت: إنه الجنرال المسؤول عن أفغانستان! فقال: حسنًا، لست بحاجة للقائه".

حصل على المذكرة "أرشيف الأمن القومي" - وهو معهد أبحاث غير ربحي مقره جامعة جورج واشنطن - كجزء من دعوى قضائية من أجل حرية المعلومات. وقد حصلت عليه الواشنطن بوست من المعهد المذكور.

من جانبه، صرح ماكنيل لمقابلات الدروس المستفادة بأنه لم يتلقَ سوى القليل من التوجيه الاستراتيجي، وقال إن البنتاجون كان حريصاً على إخفاء العدد الحقيقي للقوات الأمريكية.

مضيفاً أنه "لم تكن هناك خطة تليق بحملة عسكرية منذ البداية.. رامسفيلد كان يتحمس لأي زيادة في عدد القوات على الأرض".

في ذلك الوقت، قاد ماكنيل حوالي ٨٠٠٠ جندي، وهو جزء صغير من العدد الذي سيذهب بعد ذلك إلى أفغانستان. فقط عدد قليل من المعارضين داخل إدارة بوش كان يدفع في اتجاه بذل المزيد من الجهد.



وقال ريتشارد هاس الدبلوماسي البارز الذي عمل كمنسق خاص لإدارة بوش بأفغانستان بعد هجمات ١١ سبتمبر لمحاوري الحكومة إنه اقترح إرسال ٢٠٠٠٠ أو ٢٥٠٠٠ جندي أمريكي، إلى جانب عدد مماثل من قوات التحالف. لكن خطته قد أُجهضت، كما يقول.

"لم أستطع الترويج للفكرة، لا يوجد حماس". قال ذلك هاس في مقابلات الدروس المستفادة، وأضاف: "كان هناك إحساس عميق بفقدان الأمل في أفغانستان.. لم أكن أتحدث عن أكثر من ١٠٠٠٠ شخص يؤدون مهمة محدودة للغاية، مهمة لا تختلف كثيراً عما لدينا الآن، التدريب والتسليح في إطار محدود".

وقال: "كان يُنظر إلى هذا العدد على أنه كثير للغاية، وهذا أمر مثير للسخرية بالنظر إلى ما آل إليه الأمر الآن. وباستعادة هذه الأحداث يبدو الأمر وكأنه كان صفقة".

وبإبقاء القوات عند الحد الأدنى في أفغانستان، كانت إدارة بوش تتطلع إلى تحقيق انتصارات سريعة على جبهتين في نفس الوقت.

في ١ مايو ٢٠٠٣ ، بينما كان يقف تحت لافتة "أُنجزت المهمة" على حاملة طائرات، أعلن بوش إنهاء "العمليات القتالية الرئيسية" في العراق. وفي اليوم نفسه، زار رامسفيلد كابول وأعلن انتهاء "نشاط قتالي كبير" في أفغانستان.

جاء كلا الإعلانين بنتائج عكسية بشكل مذهل، وانحدر العراق إلى حرب أهلية. وفي هذه الأثناء وبينما تركز الحكومة الأمريكية على العراق، تمكنت حركة طالبان من استعادة قوتها مرة أخرى.

وقال نيكولاس بيرنز، وهو دبلوماسي أمريكي محترف عمل سفيراً لدى الناتو في عهد بوش: "إن الإدارة فقدت الرؤية للصورة الكبيرة لأفغانستان في وقت محوري".

وأضاف لمقابلات الحكومة: "بعد ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ لا أتذكر أننا سألنا أنفسنا: هل يجب أن نكون هناك؟ هل نحن مفيدون؟ هل ننجح؟ .. "أعتقد أننا كنا سنبلي بلاء حسناً لو كان لدينا استراتيجية أكثر تحديداً.. نعم، نحن هناك في طريق لا آخر له.. كم تستمر الحرب؟ هل ١٠ أو ١٥ أو ٢٠ عاماً؟ أم الأفضل إنهاء التدخل الأمريكي.. لا أتذكر أننا سألنا أنفسنا هذه الأسئلة الصعبة.

كان بيرنز أحد القلائل الذين تحملوا المسؤولية الشخصية عن دوره في إخفاقات الحرب بأفغانستان من بين مئات الأشخاص الذين قابلتهم SIGAR ، يقول: "في ذلك الوقت، كنت أتساءل كثيراً هل ارتكبنا خطأً - وأنا جزء من هذا بوضوح لذلك يجب أن أتحمل جزءًا منه - بعدم اتخاذ قرار استراتيجي يحدد "نقطة نهاية"؟ "أنا أخطئ نفسي.. هل تعلم؟ ربما كان علينا أن نسأل هذه الأسئلة باستمرار بحلول ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦".

في الوقت الذي تولى فيه الجنرال البريطاني ديفيد ريتشاردز مسؤولية قوات الناتو في أفغانستان عام ٢٠٠٦، كانت طالبان تترك للقوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها كل ما يمكنهم السيطرة عليه من الأجزاء الشرقية والجنوبية من البلاد. قال ريتشاردز لكن التحالف قد فشل في التأقلم مع ذلك.

وقال لمحاوري الحكومة: "كنا نحاول الحصول على نهج واحد متماسك طويل الأمد، واستراتيجية مناسبة، ولكن بدلاً من ذلك تلقينا الكثير من التكتيكات". "لم تكن هناك استراتيجية متماسكة طويلة الأجل".



في مقابلة الدروس المستفادة، تذكر ريتشاردز لقاء متوتراً جمعه مع رامسفيلد عام ٢٠٠٦، وفيه سأل قائد البنتاجون قائد الناتو عن سبب تدهور الأمور في الجنوب؟ رد ريتشاردز بأن سبب ذلك عدم وجود ما يكفي من الموارد، فقال: ماذا تقصد؟ قلت: ليس لدينا ما يكفي من القوات والموارد وفي المقابل رفعنا سقف توقعاتنا. فقال رامسفيلد: لا أتفق مع ذلك، امضِ للإمام!

وفي العام التالي، تولى قوات الناتو في أفغانستان قائد جديد: ماكنيل، الجنرال الذي نسي بوش اسمه ذات مرة. وقد أمر ماكنيل بالعودة إلى أفغانستان لتولي القيادة مرة ثانية حيث شنت طالبان موجة من الهجمات الانتحارية وبدأت في زرع القنابل في جميع أنحاء البلاد.

بحلول مارس ٢٠٠٧، ارتفع عدد القوات الأمريكية وقوات الناتو في أفغانستان إلى ٥٠.٠٠٠. وعلى الرغم من الزيادة، قال ماكنيل لا يوجد مسؤول قد استطاع أن يصيغ مهمة واستراتيجية واضحة.

"حاولت حتى قبل أن أذهب هناك أن أجد شخصًا يحدد لي ما الذي يعنيه الفوز؟ لكن لم يستطع أحد الإجابة. وقال لمقابلة الحكومة: "لم يعطني أحد تعريفًا للفوز هناك". "كان بعض الناس يقولون إن الفوز يكون بإقامة دولة ديمقراطية، لكن هذا لن يحدث في أفغانستان".

وأضاف ماكنيل: "لم تكن هناك خطة لحملة الناتو العسكرية، فقط الكثير من الكلام بلا خطة". عموماً لن نستطيع تغيير ما حدث، الكثير مما قمنا به كان ببعض التروي، لكن أغلبه كان رد فعل لما يحدث على الأرض.. كنا انتهازيين".

ما قالوه في العلن

١ ديسمبر ٢٠٠٩

"بصفتي القائد العام، أنا مدين لك بتحديد مهمتك بوضوح". (أوباما في خطاب أمام طلاب الجيش في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت بنيويورك، معلناً أنه سيرسل ٣٠ ألف جندي إضافي إلى أفغانستان).

حتى قبل أن ينتقل القائد العام الجديد إلى البيت الأبيض، أدرك القادة العسكريون الأمريكيون أنهم بحاجة إلى خطة حرب جديدة، تلك السنوات التي قضوها في مطاردة الإرهابيين المشتبه بهم لم تؤدِ إلى أي تقدم، بل بالعكس قد استمرت طالبان في كسب الأرض.

يقول إدوارد ريدر للمقابلات الحكومية، وهو قائد العمليات الخاصة الذي عمل في الجبهة الأفغانية عدة مرات قبل تقاعده عام 2015: "في ذلك الوقت كنت أنظر إلى أفغانستان وأقول لا بد من حل لهذه المشكلة دون قتل الشعب، لأن هذا ما كنا نفعله هناك، وفي كل مرة أعود فيها هناك أجد الوضع الأمني أسوأ".

أراد القادة العسكريون الأمريكيون مضاعفة استراتيجية مكافحة التمرد، كان الهدف هو كسب "قلوب وعقول" الشعب الأفغاني من خلال حمايته من طالبان، والحد من الخسائر في صفوف المدنيين وبناء الدعم الشعبي للحكومة الأفغانية الجديدة.



في آب/ أغسطس ٢٠٠٩، كتب الجنرال ستانلي ماكريستال، قائد القوات الأمريكية وقوات الناتو آنذاك، تقييماً سرياً للحرب مؤلفاً من ٦٦ صفحة، دعا فيه إلى حملة مكافحة التمرد "مزودة بوارد مناسبة". ووضعَ استراتيجيته المقترحة بتفاصيل دقيقة.

على الرغم من ذلك قال المسؤولون الأمريكيون والحلفاء في مقابلات الدروس المستفادة إن ماكريستال وإدارة أوباما طمسوا سؤالين أساسيين: **مَن نقاتل؟ ولماذا؟**

كان أوباما قد أعلن مرارًا وتكرارًا أن هدف الحرب هو "تمزيق القاعدة وتفكيكها وهزيمتها في نهاية المطاف". لكن المسودة الأولى للمراجعة الاستراتيجية التي أجراها ماكريستال لم تذكر حتى القاعدة، لأن المجموعة اختفت تقريباً من أفغانستان، وفقاً لمسؤول في حلف شمال الأطلسي لم يذكر اسمه مشارك في المراجعة.

وقال مسؤول الناتو لمقابلة الحكومة: "كان التصور عام ٢٠٠٩ أن القاعدة لم تعد مشكلة". "لكن السبب الأساسي للوجود في أفغانستان كان القاعدة لذلك ضُمت للمسودة الثانية.

وقال مسؤول حلف شمال الأطلسي إن انفصالاً صارخاً آخر كان موجوداً، وهو أن الولايات المتحدة وحلفائها لم يستطيعوا الاتفاق على ما إذا كانوا فعلاً يخوضون حرباً في أفغانستان أو يفعلون شيئاً آخر.

وأضاف المسؤول في حلف شمال الأطلسي: "هناك آثار كبيرة وخطيرة من الناحية القانونية بموجب القانون الدولي تترتب على وصف تدخلنا في أفغانستان بالحرب.. لذا راجعنا الفريق القانوني واتفقوا على أنها ليست حربًا".

أضاف ماكريستال إلى تقريره سطراً كي يطمس المشكلة قائلاً: إن الصراع ليس حرباً بالمعنى التقليدي.

حتى الوصف الرسمي للمأمورية كان أكثر تعقيدًا.

فقد نصّ التعريف الطويل على أن الهدف من تدخل القوات الأمريكية وقوات الناتو كان "الحد من قدرة المتمردين، والعمل على زيادة قدرات قوات الأمن الوطني الأفغانية (ANSF)، وإحداث التحسينات في الحوكمة والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، من أجل توفير بيئة آمنة للاستقرار المستدام الذي يمكن ملاحظته من قبل السكان".

بعد شهور من النقاش في البيت الأبيض، وافق أوباما على استراتيجية مكافحة التمرد.

في خطابه في ديسمبر ٢٠٠٩ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية، أعلن أنه سينشر **٣٠.٠٠٠** جندي أمريكي إضافي في أفغانستان، بالإضافة إلى **٧٠.٠٠٠** جندي سبق أن أرسلهم هو وبوش. سيزيد حلف الناتو وحلفاء الولايات المتحدة الآخرون قواتهم إلى **٥٠٠٠٠**.

لكن أوباما قد دق أسفيناً في اللحظة الأخيرة فاجأ به العديد من كبار مستشاريه، فقد فرض جدولاً زمنياً للمهمة وقال إن القوات الإضافية ستبدأ في العودة إلى الوطن في غضون ١٨ شهراً.



قال الجنرال ديفيد بتريوس، قائد القيادة المركزية الأمريكية في ذلك الوقت، في مقابلات الدروس المستفادة: "لقد حُدد لنا الجدول الزمني فجأةً.. قبل يومين من إلقاء الرئيس الخطاب، كان يوم أحد، تلقينا جميعًا مكالمة وقيل لنا أن نكون في المكتب الرئاسي تلك الليلة كي يحدد الرئيس ما سيعلنه بعد ليلتين".

وقال بتريوس: "لم يسمع أحدُ منا عن ذلك من قبل، ثم سئلنا بعد ذلك هل أنتم موافقون على ذلك؟ بينما هو يجول في المكتب. فقلنا جميعاً نعم! لقد كان الأمر كأنه إما أن تقول نعم أو لا.

كان الخبير الأفغاني بارنيت روبين يعمل مستشارًا لوزارة الخارجية في ذلك الوقت. وقال لمحاوري الحكومة إنه ومسؤولون أمريكيون آخرون "كانوا مذهولين" عندما سمعوا أوباما يكشف عن الجدول الزمني خلال خطاب ويست بوينت. كل ما كان على طالبان فعله كان التواري عن الأنظار حتى مغادرة القوات الأمريكية وقوات الناتو.

وقال إنه كان مفهوماً أن أوباما أراد أن يخطر الحكومة الأفغانية بأن الأمريكيين لن يقاتلوا إلى الأبد. وأضاف روبن: "لكن كان ثمة تعارض بين الموعد النهائي والاستراتيجية". "فمع هذا الموعد النهائي، لا يمكنك استخدام هذه الاستراتيجية".

ترحب مجلة كلمة حق باستقبال مقالات القراء ، إذ تعمل هيئة التحرير على فرزها ونشر المتميز منها في كـل عدد جديد ، يُرجى إرسال المقالات على البريد التالـي Klmtuhaq@gmail.com

شروط المقال

(١) ألا يكون عاطفيا يخاطب الشعور بل عقلانيا وما أجمل لو يكون خلاصة عملية.

(٢) أن يكون في باب الثورة والمقاومة والكفاح، فذلك واجب الوقت.

(٣) أن يكون عمليًا مفيدا وأحسن ما يكون لو قدم إجابة على سؤال كيف نفعل كذا، أو في الموقف الفلاني ماذا ينبغي أن نفعل، وهو مجال واسع، يكتب فيه السياسي والاقتصادي والقانوني والإعلامي والشرعي الثورات الأمة بحاجة لخبرات في كل هذه المجالات

(٤) أن يكون مكتوبًا باسم صاحبه، لا باسم مجهول ولا بكنية، فلئن كان ثمة ما قد يعرقل نشر الاسم الظروف خاصة ، فيمكن للمجلة أن تحتفظ بالاسم دون نشره لرغبة صاحبه.



klmtuhaq



السنة الثالثة العدد ٣٣ أبريل ٢٠٢٠

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
حامد عبدالعظيم